الفصل الثانى

هامشية البطل

- كامل روبة لاظ بطل « السراب » نجيب محفوظ .
- فؤاد بطل « أزهار الشوك » محمد فريد أبو حديد .
- حسنى بطل « شجرة اللبلاب » محمد عبد الحليم عبد الله .

١ ــ السراب (*)

إنى أستطيع أن أتخيل ، وأن إحادث نفسى
اما الأقدام على عمل فهو المحال »

« كامل رؤبة لاظ » الرواية (٣١١)

ــ ١ ــ

فى ختام الرواية يناجى كامل بطل رواية السراب نفسه وهو فى دور النقاهة من الحمى التى أصابته : « ليتنى أخلق شخصا جديداً سليم الجسم والروح ، لا يعشش بأركان نفسه الخوف والجفاء ، فألقى بنفسى فى خضم الحياة الإنسانية بلا خجل ولا نفور ، أحب الناس ويحبوننى ، وأعينهم ويعينونى ، وآلفهم ويألفوننى ، واندمج فى كائنهم الكبير عضوا عاملا نافعا . ولكن أين منى هذه السعادة ! وفيم أعلل النفس بالأمانى الكاذبة ؟ . لم أخلق لشىء من هذا ، وإنما خلقت للتصوف ، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهنى بغير قصد ، ولكن سرعان ما تشبثت بها بدهشة وحيرة : التصوف ؟ لست أدرى ما هو على وجه التحقيق ولكنه وحدة وعزوف وما أحوجنى للوحدة والعزوف والتفكير . عجبا ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادى ؟ الحق أنى لم أشك الوحدة التى ألفتها العمر كله ولكننى استوحشت الوحدة التى خلفتها أمى . أما الوحدة المعهودة فما أشد لهفتى إليها ! أجل ينبغى قبل ذلك أن أطهر جسمى ظاهره وباطنه ، ثم أكرس قلبى للسماء . لقد خلقت فى الواقع متصوفا ولكن أضلتنى نوازع الحياة . وتصورت نفسى فى طهر عجيب ، يستحم جسدى بماء عطر ، وتتسامى روحى فى صفاء ونقاء ، فلا مشهد أرنو إليه إلا السماء ، ولا خاطر ينبثق فى نفسى إلا الله » (١) .

(*) الطبعة الأولى ١٩٤٨ والنسخة التى اعتمدت عليها ١٩٦٤ .

(١) الرواية : ص ٣٦٦ .

فى هذا المشهد يقف البطل – بعـد شفائه من نفسه العليلة وجسمه المحموم – ليختار طريق « التوحد » ، « توحد الذات مع الله » . أدرك أن الكمال والاستنارة لا يأتيان إلا عن طريق ترويض النفس ذاتها وهذه تجربة لا بد لكل إنسان من ممارستها بنفسه ، فالاستنارة كما يقول « هكسلى » لا تتأتى إلا للذين تعلموا كيفية تقبل الواقع والعمل على تغيير شكله . ويبدو أن التجربة التى عاناها البطل كشفت لنفسه عن طبيعتها الهامشية . فهو لم يحاول أن يصل إلى التوازن بين الذات والموضوع ، بين الداخل والخارج. لقد أدرك بممارسته الحياتية الخاصة أن ثمة عزوفا باطنيا – فى شعوره ولا شعوره على السواء – ثمـة « شىء » فردى ذاتى لا يرجع إلا إلى نفس المتصوف ، « يهرب من تأثير الجماعة » وهذا الشىء هو هذا التطلع إلا اللامتناهى ، هو هذا التشوف إلى المطلق (٢) .

وليس من شك فى أن هذا الموقف هو محاولة من محاولات البحث عن اليقين الميتافيزيقى الذى لجأ إليه كامل ليقضى على « العجز » الذى ابتلى به ، هذا العجز الذى ابتدأ بالعجز الجنسى وتدرج إلى العجز عن التكيف الإجتماعى . وقف عن استبطان الذات . حاول أن يقضى على وحشة الفردية بالإستنارة الصوفية بدلا من العيش فى رحابة الجماعة . لكن هذا الصحوة الصوفية التى شملت وجدان « كامل » وهذا الموقف الذى اطمأن إليه لا يتطابق مع مستوى تجربته وعمقها ، فضلا عن ثقافته الضحلة وإن كان يتلاقى مع بناء شخصيته . والسؤال الذى يثور الآن هو : كيف انتهى كامل إلى هذا الموقف . . إلى الطريق الصوفى ؟

إن « كامل » لم يصل إلى هذا الموقف إلا بعد تحرره من سيطرة أمه وموتها وموت زوجته « رباب » يقول : « وصرخت أمى فى فزع :

---

(٢) عدنان الذهبى : فى سيكولوجية الرمزية ، مجلة علم النفس ، مجلد – ٥ فبراير ١٩٥٠ ، ص ٤٢٢ .

– كامل . رحمة بنفسك ، رحمة بى ، أنت لا تدرى ماذا تقول .

– بل أدرى أكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت في يوم مالا يعرفه مثلى فى جيل ، قلت لك أنها أخفت الأمر عنى وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها .

– اللهم لطفك يا أرحم الراحمين .

– ألا يزال أرحم الراحمين ؟ . . وداعا فلن أعبده بعد اليوم .

. . .   .

– لشد ما يحزنى كلامك ، أنك تقتلنى بلا رحمة .
فصحت بها كالمجنون :

– اشمتى ما شاءت لك الشماته ، ولكن إياك وإن تتصورى أننا سنعيش معا .

انتهى الماضى بخيره وشره ولن أعود إليه ما حييت . سأنفرد بنفسى انفرادا أبديا . لن أعيش معك تحت سقف واحد ، وسأطلب من الوزارة نقلى إلى مكان قصى أقضى فيه البقية من عمرى .

أشرق الدمع بعينها وعقد الألم لسانها ولبثت ترنو إلى فى فزع ووجوم وكأنه لم يكفنى ما قلت فأردفت مرغيا مزبدا :

– اذهبى إلى أختى أو إلى أخى واحسبينى منذ اليوم فى عداد الأموات ووليتها ظهرى وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع أذنى . » (٣) هنا تحرر من أمه ونفوذها . وقطع « الحبل السرى » الأموى الذى كان يربطه بها . كانت كلماته طعنات نجلاء أجهزت على الأم المريضة بالقلب . أحس كامل أنه وراء موتها « لقد قتلتها ما فى ذلك ريب . رباه ، رباه كيف هان على أن أقول لها ما قلت » . « أن أسرتنا مصابة بداء قتل الوالدين ، ولقد حاول

---

(٣) الرواية : ص ٣٥٤ .

والدنا أن يقتل جدنا فأخفق ، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت » (٤) .

إن هذا المشهد يثير سؤالا يلقى أبعاداً على شخصية البطل : ما هى طبيعة علاقة البطل بأمه وأبيه ومدى تأثير هذه العلاقة فى الدور الإجتماعى الذى ظهر به البطل فى مجتمعه ؟

إن عودة إلى حياة البطل الوجدانية ومحاولة ربط هذه الحياة بالمواقف الإجتماعية التى اتخذها البطل ربما ألقى أضواء على مدى « الهامشية » التى يعانى منها البطل « كامل » . والمشاهد التالية تعمق من فهمنا لهذه الشخصية وما يكتنف سراديبها المظلمة وكهوفها الداجية .

— ٢ —

يحكى كامل لنا حياته فيقول : « نشأت فى بيت جدى ، فلم أعرف بيتا سواه ، بل لم أعرف من الأهل غير جدى وأمى ، لأنى حين أخذت أعى ما حولى كان أبى قد استرد أخى وأختى ، وكانت جدتى قد ماتت ؛ ولم أعرف أن لى أبا إلا بلسان أمى ، وحديثها المفعم مرارة وحزنا ، فنمت كراهيتى له على الأيام » (٥) و « كانت أمى وحياتى شيئا واحدا ، وقد ختمت حياة أمى فى هذه الدنيا ، ولكنها لا تزال كامنة فى أعماق حياتى ، مستمرة باستمرارها . لا أكاد أذكر وجها من وجوه حياتى حتى يتراءى لى وجهها الحميل الحنون ، فهى دائما وراء حبى وآمالى وآلامى ، وراء حبى وكراهيتى ، أسعدتنى فوق ما أطمع ، وأشقتنى فوق ما أتصور ، وكأنى لم أحب أكثر منها ، وكأنى لم أكره أكثر منها ، فهى حياتى جميعا ، وهل وراء الحب والكراهية من شىء فى حياة الإنسان ؟ فلأعترف بأنى أكتب لأذكرها هى ، ولأستعيد حياتها هى ، بذلك تعود الحياة كلها »(٦) « وكان من عادتى ألا استسلم للنوم حتى امتطى

---

(٤) الرواية : ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .
(٥) الرواية : ص ١٦ .
(٦) الرواية : ص ٧ .

منكب أمى فتذهب بى وتجىء بطول البيت وعرضه ، وكلما توانت حثتها بقدمى . وكنت أرفل دائما فى فساتين البنات ، وشعرى مسدل حتى المنكبين . وقد بدأ لامى يوما أن تهيء لى بدلة عسكرية محلاة بالنجوم والنياشين ، وارتديتها مسرورا ، وقطعت البيت فى عجب وخيلاء ، ضابطا عظيما ذا ضفيرة تتهادى على ظهره . ولم يكن جدى يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط . ولكنه لم يجد من وقته متسعا للإشراف على تربيتى ، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادى القمار إلا قبيل الفجر وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمى لسوء طالعها ، ولأنه لم يبق له فى شيخوخته سواها . عشنا ثلاثتنا وليس للأب إلا ابنته وليس للأم إلا ابنها وكانت أمى تهفو لذكريات أختى وأخى بعين دامعة وفؤاد كسير ، وتتلهف على رؤيتهما ولو ساعة واحدة ، ولم تجد فى حزنها من عزاء سواى ، فأودعتنى حضنها ، لا تحب أن أبرحه ، وتود لو أجعل منه مرتعى ومراحى ودنياى جميعا . وهفت نسائم الحياة رخاء ، فلم أدرك إلا بعد فوات الوقت أنه كان حنانا شاذا قد جاوز حده ، ومن الحنان ما يهلك . كانت مصابة فى صميم أمومتها فوجدت فى أنا السلوى والعزاء والشفاء ، وكرست حياتها جميعا لى ، أنام فى حضنها ، وأقضى نهارى على كتفها أو بين يديها ، وحتى فى الأوقات التى كانت تتعهد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها ، أو لم تكن تدعنى أفارقها حتى فى المطبخ كنت أمتطى منكبها مفترشا رأسها بخدى متسليا بمشاهدة الطاهى وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل بل كنا نستحم معا فتجعلنى فى طشت عاريا وتجلس أمامى متجردة فأرشها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على جسدها فأدلك به جسدى ، ولم نكن نغادر البيت إلا قليلا ، فصلتنا بآل أبى مقطوعة ، وخالتى كانت تقيم فى ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها ، فإذا خرجت فى النادر لزيارة إحدى الحارات اصطحبتنى معها على أننا كنا نواظب على زيارة السيدة زينب ، ولعلها الزيارة الوحيدة التى كنا ننتظرها بفارغ الصبر . ولم يكن يسوءها شيء مثل أن

نثنى على امرأة من معارفها مما يثنى به على الأطفال عادة ، فكانت تتطير من الثناء وترقينى من العين فى إشفاق عميق ، ومن عجب أنى لا أذكر التعاويذ والرقى باستهانة أو ازدراء ، وإنى لاؤمن بكل ماكانت تؤمن به أمى . وقد نلت من الثقافة حظا ، وحصلت على البكالوريا ، ولكن بقى لى إيمانى القديم سالما غير منقوص ، وهيهات أن يتزعزع إيمانى بالله ورسله وأوليائه والدعوات وللتعاويذ والأضرحة .

بيد أنى لاأستطيع أن أقول أنى استكنت إلى تلك الحياة بلا تململ . ولعلى ضقت بها فى أحايين كثيرة ، وتطلعت إلى الحرية والإنطلاق . ولعل ضيقى ذاك مضى يزداد بتدوجى فى مدارج النمو ، وآى ذلك أنها أقبلت تخوفنى أشياء لاحصر لها لتردنى عما أتطلع إليه من حرية وانطلاق ، ولتحتفظ بى فى حضنها على الدوام . ملأت أذنى بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجـــان والقتلة واللصوص ، حتى خلتنى أسكن عالما حافلا بالشياطين والإرهاب ، كل ما به من كائنات خليق بالحذر والخوف ذلك عهد بعيد ، ولكنه لايزال حيا فى صدرى ودمى ، وهو الذى جعل من الخوف جوهراً أصيلا فى نفسى تدور حوله حياتى جميعا ، فنغص على صفوى ، وزمانى بتعاسة لاتريم ، وما أنا إلا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعراً ، وأخاف الناس ، وأخاف الحيوان والحشرات ، وأفرق من الظلام وما يرصدنى من أوهامه ، وانحامى جهدى أن أنفرد بقط ، وهيهات أن أنام فى حجرة بمفردى . على أن الخوف كان أعمق فى حياتى من هذه الأشياء التى يتمثل لى فيها ، لقد استطال ظله الكثيف حتى أظل الماضى والحاضر والمستقبل ، واليقظة والنوم ، وأسلوب الحياة وفلسفتها ، والصحة والمرض ، والحب والكراهية ، فلم يترك شيئا خالصا . وقد عشت جل حياتى الماضية غرا جاهلا لا أدرى لتعاستى سببا ، ثم جلت لى المحن من جوانب من حياتى ، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة ، بيد أن شعورى بالعجز يفارقنى ، وهو يستند فى الحق إلى قصور ثقافتى وضعف ثقتى فى قواى

العقلية كانت أمى مبعث هذه الآلام ولكنها كانت كذلك الملاذ الوحيد منها ، فآويت إليها فى غير حيطة »(٧) .

وقد لاحظ جده هذا الارتباط العضوى بأمه فقال له ذات يوم بلهجة ساخرة « ألا أخجل يا رجل وابتع لك فراشا ، اتظل الدهر تنام فى حضن أمك ؟ وابتعت بالفعل فراشاً ولكنى ركبته فى نفس الحجرة فظلت تحوينا معا ، وهى الحجرة التى رأيت فيها نور الدنيا »(٨) .

* * *

وعندما همت روحه أن تلتقى بقرين تسكن إليه لم يستطع أن يقطع الحبل السرى الذى يربطه بأمه فهو مشدود إليها « « بت أشعر أنى فريسة هذين قاتلين ترددى وأمى ومن يدرى فلعل أمى هى الهم كله »(٩) ومع ذلك فباطنه يمور بالتمرد وإن لم يظهر على السطح ، بدأ يحاول أن يتململ من هذه الشرنقة العاطفية التى تلفه بخيوطها . « ثم جاء دور أمى ولو متأخرا ، فأخذت أتمرد عليها وإن لبث تمردى ناراً مكنونة لا يتطاير لهـا شرر « ونشأ ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكرها بزواجى عاجلا أو آجلا . وقد لمست ذلك بنفسى حين حدثتها خالتى — فى إحدى زياراتهـا الموسمية — عن رغبتها فى زواجى من ابنتها التى صارت شابة ناضجة ، فرأيت كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة . . . ولمسته مرة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة — كانت تزورنا فى مواسم الكساء — أن تخطب لى عروسا لائقة ، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتى انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكا . لاحظت ذلك بوجوم وغيظ واستنكرته استنكارا شديداً ، ولم أجد له تفسيرا أرتاح إليه . ولم تكن بى رغبة إلى ابنة خالتى ،

---

(٧) الرواية : صفحات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٨) الرواية : ص ١٠٤ .

(٩) الرواية : ص ١١٢ .

ولا إلى عروس من عرائس الدلالة ، ولكنى آنست منها كرها لزواجى ، فأشفقت على آمالى ، وثارت ثائرتى وبدا لى أن قلبها توجس خيفة فقالت لى يوما : —

إنهن لا يرمن سعادتك ولكنهن يردنك مطية لسعادة بناتهن . لم أفهم لقولها معنى ، وقرأت فى عينيها أنها ترجو أن أنصح عن عدم اكتراثى للأمر ، ولكنى تشجعت ولازمت الصمت ، فقالت بلهجة تشى بالقلق : — الزواج سنة ولا يجوز أن يتزوج الشخص قبل أن تكتمل رجولته فتساءلت فى امتعـاض : إذا لم تكتمل رجولتى فى السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن ؟ . . . وتفرست فى وجهى مليا ثم استطردت قائلة بجزع : —

— إنى أريد لك عروسا جديرة بك حقا . يبهر حسنها الأعين ، وتطرى أخلاقها الألسن ، من أسرة كريمة . . . فسألتها وأنا أدارى غيظى : — وأين توجد مثل هذه العروس ؟ قالت وهى تعض شفتيها : — ستوجد حين يأذن الله . وقلت لنفسى هذا تعجيز بلا ريب »(١٠) .

وواضح من هذا المشهد أن ثمـة صراعاً خفياً بين الام والإبن ، الإبن يرغب فى التحرر والاستقلال بشخصيته ، والأم تتشبث به . ولن ندرك عمق الصراع بينهما ومداه إلا إذا تأملنا قليلا الظروف البيئية للأسرة : الأم مطلقة ، الأب سكير مقامر الجد مقامر . ماذا تنتظر أن يكون عليه الإبن ؟ إن الهامشية والسلبية ، بل الضياع هو النهاية الطبيعية لشخصية مثل شخصية « كامل » . والمشهد الذى تبدو فيه الأم والإبن وفيه تفصح عن مكنون ضميرها بالنسبة لزواجه يبين بجلاء عمق المأساة التى حلت بها ، والتى جعلت سلوكها مع وليدها يتسم بالتسلط . تأمل المشهد التالى وموقف الام بعد أن أثارها « كامل » بعدم رغبتها فى زواجه :

---

(١٠) الرواية : ص ١٠٩ — ١١٠ .

« تهدج صوتها وهى تقول : — ليس بخاطرى إلا فوق ما تحب لنفسك من السعادة والهناء . . ولكن ليس الزواج لهوا ولعبا ، وإليك مأساة أمك فهى أكبر دليل على ما أقول . . . كم تعذبت ، وكم تألمت ، . . . كم بكيت حنينا إلى أطفالى الذين عاشوا غرباء عنى ونحن فى مدينة واحدة ، وحتى أنت كان شبح فراقك يطاردنى ويقض مضجعى ، ولو أخذوك منى لقضيت غما و كمداً . . . ولا تحسب أنى أمن عليك فالأمومة تستنكر المن... لقد عشنا معا طوال هذا العمر وليس لى أمل فى هذه الدنيا سواك ، فإذا نبذتنى لم أجد لى مأوى »(١١) .

وتبدو فى خلفية المشهد السابق رواسب التجربة الفاشلة ، والرغبة فى احتواء الابن والسيطرة عليه ، وفى الوقت نفسه تبدو الرغبة — من جانب الابن — فى الانفصال . أصبح سلوك الأم يبتعد عن المرونة بقدر ما يقترب من التصلب والسيطرة على الابن . وربما القت بعض تعريفات المرونه والتصلب أضواء على سلوك الأم واستجابة الابن بالتالى . يقول «اندرسون» : إن « الاستجابة الصادرة من خلال اتصال اجتماعى بين الطرفين تتميز بالمرونة بمقدار سماحها بتفاعل الفروق بين الطرفين ، بل وبقدر استثمارها لهذه الفروق سهم فى التفاعل ، وكذلك هى التى تسمح بالتفكير العقلى الواضح فى أمور الآخرين ، وتسمح بالحكم عليها ، وتستثمر بطبيعتها جوانب الاختلاف أو وجهات النظر المختلفة أثناء التفاعل ، فتنشط عمليات «التغاير» ، التى هى جانب أساسى من جوانب النمو على أساس أنها تدفعه وتشجعه » . . ، كما ان مفهوم « السلوك المتكامل اجتماعيا » يطلق على الاستجابات التى تتسم بالمرونة ، من حيث أنها تحاول أن تجد أغراضا مشتركة « أو مواضع التقاء » من خلال الفروق المستثارة ، أى من حيث أنها تسعى إلى تحقيق التناسق مع فروق الغير دون أن تفقد تلقائيتها . أو « هويتها » . . . و « الاستجابة المتصلبة هى الاستجابة التى تميل

---

(١١) الرواية : ص ١١٢ — ١١٣ .

إلى تعطيل الفروق القائمة لدى الآخرين (بدلا من استثارتها ومحاولة توظيفها فى عملية التفاعل الإجتماعى) وإن مفهوم « السيطرة » يطلق على الإستجابات التى تتسم بالتصلب من حيث أنها تحاول أن تضيق نطاق الخبرة التى على أساسها تتحدد نتيجة التفاعل بين شخصين أو أكثر ، فبدلا من أن أسعى إلى تحديد النتيجة على أساس أن أدخل فى حسابى أكبر عدد من مميزات السلوك والشخصية عندى وعند الطرف الآخر فى التفاعل ، أجدنى مندفعا إلى تقليل عدد العناصر الداخلة فى تحديدها .

ويتضح من ذلك أن المرونة ، هى سمة الاستجابة الساعية إلى تحقيق التكامل الإجتماعى ، أى إلى التعامل مع سلوك الآخرين وشخصياتهم تعاملا يتناسب مع ما فيها من ثراء . . . ويتضح كذلك أن التصلب ، هو سمة الإستجابة الساعية إلى السيطرة الإجتماعية أى إلى التعامل مع الآخرين تعاملا يتجاهل ما قد تنطوى عليه شخصياتهم من غنى ويلاحظ هنا أن السيطرة تنطوى غالبا على الصراع » (١٢) .

وما سبق يلقى مزيداً من الضوء حول طبيعة العلاقة بين الأم والإبن . فهى هيمنت عليه هيمنة كلية نتجت – فيما يبدو – بفعل تصلب سلوكها . وربما كان مرد ذلك إلى افتقادها الشعور بالأمن بفعل تجربتها الفاشلة فى حياتها الزوجية . ومهما يكن فقد فشلت فى أن تثرى شخصية البطل « كامل » بهيمنتها عليه .

على أن هذا الموقف المتصلب لم يكن قاصراً عليها فقط ، بل شمل كامل أيضا كما نلاحظ فى علاقته بالجنس وولعه بالدميمات منذ صباه حتى رجولته فهذه العلاقة يمكن أن تفسر على ضوء تصلب السلوك . ويهمنا أن نقول أن سلوك البطل « كامل » فى مواقفه الإجتماعية جاء ثمرة لهـذا الموقف المتقوقع

---

(١٢) د. مصطفى سويف : التطرف كأسلوب للاستجابة ، الأنجلو ، ١٩٦٨ ، ص ١٧ – ١٨ .

داخل شرنقة الذات وذلك ناتج -- كما اعترف كامل نفسه وهو يحكى لنا حياته -- عن النشأة الخاصة التى كان يحياها والتى تتسم بالسلوك المنمط وهو السلوك الذى يتذبذب « أو ينتقل دون تدرج » بين عدد محدود من القوالب ، لقد بلغ « كامل منعطفا دقيقا بعجزه عن الوفاق الإجتماعى : بعدما فشل فى أن ينتقل من ضيق « الأنا » إلى رحابة الـ « نحن » . فشل فى إقامة التواصل الإجتماعى بينه وبين أفراد المجتمع ومن ثم أصبح يعيش كالنباتات الطحلبية. أو كطائر النورس يقتات مما تقذفه سفينة المجتمع . جاء سلوكه « منفعلا بالأشياء والأحداث ومتأثراً بها ، وليس « فاعلا » أو مؤثرا فيها . هنا ترقد هامشيته وسلبيته .

وقد أحس كامل أن أمه باتت تشكل عقبة تحول دون زواجه (١٣) . وعقب حديث الزواج بيومين أصيبت أمه بوعكة ألزمتها الفراش ، فجلس كامل بجانبها . « جرت فى تيار شعورى خواطر غريبة لعل باعثها الخوف والإشفاق ، فطرحت على نفسى هذا السؤال الخطير : كيف تكون الحياة لو خلت من هذه الأم الحنون ؟ . وأقشعر بدنى بيد أن خيالى لم يمسك عن هـذيانه ، فتتابعت المناظر أمام عينى واستسلمت لمشاهدتها فى حزن صامت ثقيل . رأيت بيتا مقفراً ورأيتنى تائها حائرا كمن ضل سبيله فى مفازة ، وهذا جدى متبرم ساخط يصب جام غضبـــه على الخادم العجوز والطاهى . ولمست عجزى عن مواصلة هذه الحياة الموحشة فاقترحت على جدى أن أتزوج لنجد من يكلؤنا برعايته . ثم رأيت حبيبتى بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله بعطف سابغ وحب شامل . ثم رأيتنا جميعا — أنا وزوجى وجدى — واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا . وانتبهت إلى نفسى فى فزع فأحسست بالدمع حائرا بين جفنى . وعض الندم قلبى ، وامتلأت نفسى امتعاضا وثورة ، وغمغمت لنفسى « اللهم غفرانك ، اللهم أكتب لها طول

---

(١٣) الرواية : ص ١١٣ .

العمر » ، ثم هويت على وجهها فقبلته بحنان ، وقد طاردتني ذكرى تلك الخيالات كثيرا حتى تركت في آثاراً عميقة من الألم والحنق » (١٤) .

في هذا المشهد يتراءى لنا كيف تطفو الرغبة عند كامل في التخلص من سيطرة الأم هذه الرغبة المكبوتة في اللاشعور ، تطفو على السطح وتجد تعبيرا عنها في حلم اليقظة بأسلوب يقبله الرقيب ، فهو يبكي أمه ، أمه التي ماتت — في الحلم — فهو يحبها ويقتلها — لأن الموت — موت الأم — عند كامل هو الطريق الوحيد لزواجه (١٥) . وكامل « بطبيعة الحال يريد أن يقول إن الحياة لن تطاق بدونها ، لكن مجرد التفكير في وفاتها له دلالة على الرغبة الكامنة في نفسه ، التي لا يستطيع بطبيعة الحال أن يصارح نفسه بها . . . هذا هو محور أزمة كامل » إنه يريد أن يخرج من أسر أمه بأي طريقة ، لكنها كانت قد أحكمت ربطه بها » (١٦) . هو بتحرره إنما يهدف إلى تأكيد الذات ويتطلع إلى مرحلة الانطلاق والاستقلال ، والمتأمل للمنحنى الشخصي لكامل يلمح بذور التمرد في نفسه إلى أن يصل إلى منحناه الخطر عندما تعتمل في صدره الرغبة في التخلص من الأم .

ويبدو تشابك العلاقة بين البطل وأمه وأبيه في المشهد الذي يسترجعه أمامنا وهو لم يزل طفلا صغيراً « دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أمي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها ، فأقتربت منها في خفة تحدوني شطارة الغلمان المدللين ، وأدخلت رأسي تحت ذراعيها المبسوطة ، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها وبادرت تحاول إرجاعها إلى محبئها ، ولكني أمسكت بها في عناد ، وحملقت فيها بدهشة فرأيت شابا جالسا وأمي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة ، وتعلقت عيناي بصورة الرجل فأدركت أنه أبي . وإن كنت أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له

---

(١٤) الرواية : ص ١١٤ — ١١٥ .

(١٥) يوسف الشاروني : دراسات في الأدب العربي المعاصر ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ... ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ٥٧ .

(١٦) د. عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب ، دار المعارف ١٩٦٣ ، ٢٦١ .

خوفا وكراهية ، وارتعشت يداى ، واتسعت عيناى انزعاجا ثم لم أدر إلا ويداى تمزقانها إربا ، ومدت لى يدا تحاول استنقاذها ؛ ولكنى تغلبت عليها فى حنق وهياج . . . فقالت :

— يالك من طفل مشاكس . . . لقـد مزقت صورة أمك وأنت لا تدرى . . . وهكذا فقـدت صورة الشباب الأول ، وإننى لآسف على فقدانها — الآن — أسفا خالصا ، ولكن أليس ذاك أسفا مضحكا بعـد أن أمتدت يدى إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها ؟ » (١٧) .

من شرنقة هذا المشهد ستتفرع خيوط مأساة كامل . وتمتد لتلتف حوله وتشكل نسيج أزمته . ستخلق منه مزيجا من شخصيتى أوديب وأورست معاً. ومعلوم أن أوديب هو هو قاتل أبيه كما أن أورست هو قاتل أمه . أما كامل فهو أوديب وأرست معا . لكن كيف ؟ قبل أن نستطرد فى الإجابة نعرض لموقف كامل من أبيه . سأل أمه يوما :

— ما عمر أبى ؟ . . .

— لا يقل عن السبعين . فمضى يناجى نفسه « ترى هل يعمر كجدى مثلا؟ . . . ماذا يكون حالى لو عمر طويلا وحرمنى ميراثى عشرة أعوام أو عشرين ؟ ! وتذكرت ما قيل لى من أنه انتظر يوما على مضض موت أبيه ، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع فى الجريمة التى قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة ! إنى أعانى نفس المشاعر التى عاناها قبل ثلاثين عاما ، ولعله لو كان لى بعض قوته لسلكت الطريق الذى سلك » (١٨) وعندما ذهب إلى أبيه يطلب مساعدته على الزواج لم يجد من أبيه سوى الرفض . وعندما عاود الكرة لم يجد عند أبيه شيئا يثلج صدره مما أوغر صدره على أبيه الذى أغلظ له القول : —

---

(١٧) الرواية : ص ١٠ .

(١٨) الرواية : ص ١٣٤ .

« — أتهددنى ؟ أغرب عن وجهى ولا تعد إلى هذا البيت ما دمت حيا » (١٩) .

فى هذه المشاهد المتتالية تتراءى الرغبة فى التخلص من الأب . وكما مر فإن الرغبة فى التخلص من الأم كانت تعمل فى الخفاء ، فى لاشعور كامل. والقارئ المتأمل لأزمة البطل لا يجد أية مبررات لفكرة التخلص امن الأب . إذ لم يكن له أدنى تأثير فى حياته بحيث أنه يشكل عقبة فى طريق حبه لأمه . وكامل لم يفكر فى التخلص من أبيه إلا عندما طلب منه مساعدته على تكاليف الزواج فأبى . وكانت أمه تغذى فيه مشاعر الكراهية لأبيه منذ طفولته . وهذا من باب الخطة التى أحكمتها حوله لفرض سيطرتها عليه . ومشكلة كامل فى جوهرها تتلخص فى رغبة إبن فى التحرر ومحاولة أم السيطرة ومن هنا فقد وقع بين شقى رحى الحاجة إلى تأكيد الذات من ناحيته والرغبة فى السيطرة من ناحيـــة أمه . ومن ثم أصيب كامـــل بالحصر Anxiety إذ يكتشف أن حاجاته على وشك أن تلقى الحرمان (٢٠) .

لقد حاول « كامل » أن يتحرر من هذا الحب الشاذ ، أن يتحرر من عقدة « أوديب » . لكن « المثير » هنا ليس هو الأب ، فليس له فى الواقع سلطان حقيقى على كامل . بل الأم نفسها ، ومن ثم فهو فى محاولته التمرد على أمه والتحرر من سيطرتها يكون بذلك قد سار على الدرب الذى سار فيه « أورست » . ومعلوم أن « الصراع إما أن يكون بين الأب والإبن أو بين الإبن والأم ، وإن وقوع الإبن فى هذا الصراع أو ذاك إنما يحدده الشكل الحضارى للحياة الاجتماعية التى يحياها . ففى الفترات التى يسود فيها حكم الأب يكون صراع الأبن مع أبيه ، كما حدث لأوديب ، وفى الفترات

---

(١٩) الرواية : ص ١٦٢ .

(٢٠) جوردن تيلر : ديناميات الجماعة ، ترجمة د. مصطفى سويف ، مجلة علم النفس ، عدد ٦ ، فبراير — مايو ١٩٥١ ، ص ٤١٥ .

التى يسود فيها حكم الأم يكون صراع الأبن مع أمه » (٢١) . وبالرجوع إلى حياة « كامل » ندرك أن حياته لم تخل من سيطره أمه . أما أبوه فلم يكن له تأثير عليه . ومن الطبيعى أن يكون تمرده على أمه فهذا يكفى وليس هناك ما يبرر تمرده على أبيه .

والتمرد على سلطتى الأم ، والأب خلق مركبا أوديبيا أورستيا ؛ ويشى هذا التمرد — فى التحليل الأخير - بالتمرد على الإطارين الحضاريين اللذين عرفهما الإنسان ، أعنى حكم الأب ، وحكم الأم . ومعلوم أن « الشخصية إما أن تمثل هذا الوجه الحضارى الاجتماعى أو ذلك » أى أنها إما أن تكون بكل مشكلاتها النفسية وليدة حكم الأب أو حكم الأم . أما أن تكون الشخصية وليدة هذين النوعين من الحكم معا فإن ذلك لا يمكن أن يعنى سوى التمرد على هذين الإطارين الحضاريين اللذين تنقلت بينهما الحياة البشرية منذ القدم ، والبحث عن إطار جديد للحياة يتخلص فيه الإنسان من رواسب حكم الأب وحكم الأم معا ، ولو صح أن هذا هو المضمون الاجتماعى الذى هدف إليه الكاتب من القصة لكان ذلك التناقض فى شخصية كامل شيئاً له ما يبرره . على أن « كامل » فى هذه الحالة لابد أن ينتقل ... من المستوى الإنسانى المألوف إلى المستوى « الرمزى » (٢٢) صحيح أن الطفل أقرب إلى أمه التى تحمله فى رحمها وتغذيه من صدرها منه إلى أبيه « فمعنى الارتباط الكامل بالأم إنما هو استمرار العلاقات الرحمية ، وبالتالى استمرار الحماية والتبعية وما يستتبع ذلك من سلبية . بينما النضج وحرية الفرد تستلزمان استقلالا وتحرراً من تلك العلاقات الرحمية . وفى ضوء هذا التحليل فإن أم كامل فرضت حمايتها على أبنها فى تصلب عنيف ، وكان إرتباطها بالماضى أكثر من تطلعها إلى المستقبل . وأما كامل فقد اجتذبته مظاهر التطلع إلى الحرية الفردية وتأكيد الذات . فبدأ

---

(٢١) د. عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٢٢) د. عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

يحاول أن يتخلص من هذا القيد وأن يوسع من حيز حياته : « ومن ثم يمكن أن يعد تخلصه من أسر أمه فى النهاية وكل ما يرتبط بالماضى ، المضمون الاجتماعى التقدمى الذى يمكن أن يكون هدف القصة . وعندئذ لا يكون كامل مجرد رمز أجوف بل رمزاً فياضا بالدلالة ؛ ولا يكون شخصية ناجزة تحركها يد الكاتب كيف شاءت بل إنساناً حياً يمثل مأساة إنسانية من الطراز الأول » (٢٣) لكن هذا هو التأويل العميق لشخصية البطل إذ أن أبعاده الإنسانية وبناء شخصيته لا يسمحان له بالقيام بمثل هذا الدور ومهما يكن فهو تفسير مقبول .

— ٣ —

لكن كيف كانت علاقة كامل مع ذاته ومع الآخرين ؟! إن هذا السؤال يحدد مدى الثراء أو الفقر فى بناء شخصية البطل . ومن المسلم به أن وضع الفرد فى الجماعة يتحدد من خلال اتجاهات سائر الأعضاء نحوه . والإنسان يسعى إلى تحقيق الاتزان الداخلى Homeostasis من خلال التفاعل مع البيئة . وما تقدم يلقى مزيداً من الضوء على علاقة كامل مع ذاته . يقول كامل : « كابدت الحياة فى المدرسة فى وحدة ، يطالعنى روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بى . . . ولكن خجلى الشديد أجبرنى على مقاطعة الألعاب بأنواعها . . . وعينى لم تقعا من القاهرة المدينة الوحيدة التى عشت بين أسوارها إلا على شوارع معدودات هى كل حظى من هذه الدنيا الواسعة »(٢٤). « ولم أجد من متنفس غير الأحلام . كنت أمكث فى الفصل غائباً عما حوالى وخيالى يصنع المعجزات »(*) .

وطبيعى أن يعيش البطل — على هذه الصورة — فى هامش المجتمع

---

(٢٣) د. عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٢٤) الرواية : ص ٣٩ .

(*) الرواية : ص ٥٦ .

« لم أظفر فى حياتى بصديق » (٢٥) هكذا يلخص لنا علاقاته الاجتماعية . كأنه يعيش فى فراغ اجتماعى . وكامل هنا يفتقر إلى القدرة على التواصل وإنشاء علاقات حميمة مع أفراد المجتمع . وأنه ليس ممن يشقيهم الطموح وهو يعى ذلك جيداً « لم أرض نفسى على الحياة فى الواقع ، ولم أوطنها على احتماله ، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو الاستهانة ، كما أنى لم أفدر على فلسفة القـــوة أو الثورة ، وكان إذا صادفنى أمر لا يحتمل — والدنيا كلها عندى لاتحتمل — راح خيالى السقيم يصنع من الحبة قبة ، ولا قيت الهم بما يشبه الصبر فى الظاهر على حـــين انطوى على نفسى فى كمد قاتل وغم فتاك . لذلك لم يخل مكان أحل فيه من عدو حقيقى أو وهمى كان التلاميذ والمدرسون أعدائى القدماء فغدا الموظفون أعدائى الجدد » (٢٦) « إنى شخص لايستحق أن يعيش ، إن أتفه الأعمال تملأنى ذعراً وجفولا » وماذا نتوقع من شخص يكره نفسه . لا ننتظر منه أن يحب الآخرين لأن الحب اعتراف وشعور بهوية المحب وهو شخصية هلامية » . « لست إلا مخلوقاً غريباً شذ عن قافلة الحياة الحقة ، ومن آى ذلك أنى لا أحفل بشئ فى الدنيا إلا نفسى وما يتصل بها من قريب . . ولا أقرأ الجرائد على الإطلاق . ولشد ماكانت دهشة زملائى من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقا أنى أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلى وأنا صامت كظيم ، وكأنى لست من هذا المجتمع ، فلا أدرى شيئاً عن آمالة وآلامه قادته وزعمائه ، أحزابه وهيئاته ، ولكم طرقت أذنى أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها فى نفسى صدى ، لا وطن لى ولا مجتمع ، لا لأنى أسبق الوطنية ولكن لأنى لم أدركها بعد » (٢٧) وهنا يصـــل البطل إلى الموقف الهامشى من المجتمع . يقول كامل : « أشعر

---

(٢٥) الرواية : ص ٣٨ .

(٢٦) الرواية : ص ١٠٠ .

(٢٧) الرواية : ص ١٥١ ، ١٥٢ .

أحياناً بأنى أحب الناس جميعاً ، الناس كشئ معنوى عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس – إذا اتصلت أسبابه بأسبابى – إلا ليثير فى نفسى الجفاء والنفور ، وحتى إيمانى العميق لم يستطع أن يستنقذنى من هـذه الوحشة المخيفة . . . » و « أن الأقدام فوق طاقتى ، وربما كان بوسعى أن أقضى العمر على هذا « الطوار » باكياً ، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع (٢٨) وعندما راودته فكرة الزواج شعر أن أمه عقبة فى طريقه ووقع فريسة للحيرة والتردد » تنهدت من الأعماق وتندى جبينى خجلا ، وأمتلأت سخطاً على حظى التعيس ، وامتدت ألسنة السخط على أمى المتوارية وراء كل شيء ... وعدت إلى التنديد بعجزى المطلق وخوفى الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى ... استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلا حتى بدت نفسى قطعة من البشاعة والهوان » (٢٩) وبعد وفاة والده أصبح فى وسعه أن يحقق حلمه فى الزواج ممن يحب إذ آل إليه نصيبه من الميراث. لكنه يقول « نسيت الثروة التى وقعت على ، وجمد حماسى للحياة والأمل وتركز تفكيرى فى شئ واحد لايتحول عنه ، جعلت أدور حوله دون أن أجرؤ على الدنو منه ، أو استطيع الابتعاد عنه ، ووجدت على أمى وجداً لم أحاول إخفاءه ، فقلت لنفسى فى حنق بالغ : لو لم أكن أخشاها لبعثتها تخطب لى وتكفينى شر الحمى التى تستعر فى كيانى » (٣٠) فهو عاجز عن أن يفاتح محبوبته فى رغبته الزواج منها . وقد بلغ خوفه وخجله مداه يوم الزفاف « جرنى أخى إلى حجرة الاستقبال ، دون أن أرى شيئا مما يحيط بى وإن أحسست بأذنى وأنفى أن البيت مكتظ برواد السرور وأجلست وأنا متشبث بذراع مدحت وهمست فى أذنه : – أرجو ألا تفارقنى . . فرد على هامسا : تشجع وإلا بدت عروسك دونك خجلا (٣١) .

---

(٢٨) الرواية : ص ١٧٧ .
(٢٩) الرواية : ص ١٥١ .
(٣٠) الرواية : ص ١٧٧ .
(٣١) الرواية : ص ٢١٣ .

هذه هى الصورة الهامشية لشخصية البطل كامل . يقف البطل المنقسم على نفسه عاجزاً عن التكيف النفسى مع ذاته والتوازن الاجتماعى مع مجتمعة ومع الجنس الثانى . ومن آيات الهامشية أنه فشل فى أن يقيم أى نوع من التكيف الاجتماعى والنفسى بينه وبين العالم الخـارجى وبين العالم الذى فرضته عليه أمه . وليس من شك فى أنه يفتقر إلى النضج الاجتماعى بالمعنى الذى حددته هولنجورث L.S. Hollingworth أولا ، إن الشخص الناضج قادر على أن يتدرج فى استجابته الوجدانية ، إنه يستطيع أن يفرح بدرجات ويسر بدرجات و يحزن بدرجات أيضاً ، وذلك فى مقابل الشخص غير الناضج الذى تصدر عنه استجابته بطريقة الكل أو اللاشئ . ذاك يتحرك من طرف إلى الطرف الآخر بالتدريج ، وهذا ينتقل فجأة أو باندفاع . وثانياً ، أن الشخص الناضج يستطيع أن يؤجل بعض استجاباته » (٣٢) . و بمعاشرتنا الكامل ندرك أنه يعانى من التصلب الموقفى وليس أدل على ذلك من اعترافه هو نفسه « لا لأنى لم أجد سببا وجيها لتعاستى ، ولكن لسوء صنيعى المعتاد فى تضخيم الأحزان والآلام ، ولأنى لم أواجه أمراً فى حياتى بما يستوجبه من حزم وشجاعة » (٣٣) .

أما عن علاقة كامل بزوجته رباب . فقد أحبها منذ النظرة الأولى ووجد فيها رمز الطهر والعفة والبراءة . لكن السؤال يظل قائماً : لماذا فشل كامل فى علاقته الزوجية مع رباب رغم أنه يتمتع بكامل قواه الجنسية ؟ إنه بدلا من مضاجعتها يعود إلى عادته الجهنمية فيفرط فيها . « وبدا لى تغير ملابسنا كأكبر مشكلة فى الوجود ، فهل نبقى على هذه الحال الأليم حتى مطلع الصبح ؟ .. لماذا لا أمضى نحوها فأضمها إلى صدرى حتى تحل المسألة نفسها بنفسها ؟ .. ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة ؟ أنى أستطيع

---

(٣٢) د. مصطفى سويف : التطرف كأسلوب للاستجابة ... ص ٨ – ٩ .

(٣٣) الرواية : ص ٣٨ .

أن أتخيل وأن أحادث نفسى ، أما الأقدام على عمل فهو المحال » (٣٤) . وهو لا يتصور أن تقوم بينه وبين زوجته علاقة جنسية » وعاودنى السؤال القديم : هل ما ينقصنا ضرورى للحياة الزوجية ؟ . هل تجد حبيبتى مثل هذا الإحساس الحيوانى الذى دفعنى إلى اعتناق العادة الآثمة ؟ ! أيمكن أن تعترى حبيبتى الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية ؟ إن هذا لأبغض مما أتصور » (٣٥) غير أنه غير رأيه هذا بعد خيانتها « إننى أخطات فى تصديق ما أدعت من أنها تكره الحب الجنسى وأن عجزى حيالها هو الذى رمى بها إلى أحضان الغواية » (٣٦) .

ويبدو أن مضاجعة كامل لزوجته كانت مستحيلة « بالنسبة لشخص يسعى إلى الخلاص من سلطان الأم . ولعله خيل إليه فى البداية أنه بزواجة يكون قد خطا خطوة حاسمة فى سبيل هذا الخلاص . لكنه لم يكن يدرى أنه حين يتزوج رباب بصفة خاصة يكون قد استبدل بأمه شخص آخر هو تجسيم لأمة فى الوقت نفسه . . . ومضاجعته لها معناها تحقيق لرغبة فى الأم نفسها ، وهى الرغبة التى كانت قد كبتت . إن أى اتصال جنسى بينه وبين زوجته كان معناه الفسق بالمحارم » (٣٧) وهى التى حالت دون نجاح كامل فى الاتصال جنسياً بزوجته . فحبه لها كان حباً موجها إلى الداخل ، الى الأسرة وإلى الأم بصفة خاصة ، فى حين أن حبها « عنايات كان حباً موجها الى الخارج .

ومما يدعم هذا التفسير أنه فى عشقه كان مولعا منذ مراهقته بالخوادم الدميمات « ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثم ولت ، إنها سردفين ، أو هى داء دفين . كأنى موكل بعشق الدمامة والقذارة » ، إذا طالعت وجها ناضرا

---

(٣٤) الرواية : ص ٣٨ .
(٣٥) الرواية : ص ٢٣٧ .
(٣٦) الرواية : ص ٢٣٨ .
(٣٧) الدكتور عز الدين اسماعيل : المرجع السابق ، ص ٢٥٦ .

مشرقا يقطر نورا وبهاء ملكنى الاعجاب وبردت حيوانيتى ، وإذ صادفنى وجه دميم ذو صحة وعافية أثارنى وتملكنى ، واتخذته زادا لأحلام الوحدة وعبثها »(٣٨).. ألم ينجذب قبل ذلك وهو على عتبات المراهقة إلى الخادمة القبيحة « وواجهت التجربة بلذة وسذاجة »(٣٩) . وهذا لب التصلب أو التثبيت »(٤٠) . فقد ثبت كامل عند علاقته بالخوادم أو ما فى مستواهن وأصبحت هى الموضوعات التى يمارس عليها عادته ، هى « المثير » ولذا فهو يحتقر وجوده ورجولته مع « عنايات » الدميمة . وهو لايدرى السر فى ذلك ويتساءل « كيف كان نصيبى منها العجز والاختناق على حين أننى نعمت بين يدى المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية ؟! » لفتنى حيرة شديدة وتلهفت نفسى على بصيص للنور . وزاد من حيرتى أننى شعرت شعورا عميقاً بأنى لا غنى لى عنهما معا . بل لم أجد سبيلا إلى المفاضلة بينهما ، فهذه روحى وتلك جسدى وما عذابى إلا عذاب من لايستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده . ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال ؟ ولكن ماذا يبقى لى من لذة ورجولة إذ فقدت المرأة الأخرى؟ . وأغرقر فى التفكير اغراقا لم يدع للنوم سبيلا إلىّ ، ومضت تتراءى لعينى رباب ثم عنايات ، وانحرف الخيال بغتة إلى أمى بلا داع فاتخذت مكانها فى شريط هذه الصور المتلاحقة ، وتناهت بى الحيرة حتى شملتنى حالة من الحزن والكآبة »(٤١) كانت عنيات « تملؤنى ثقة لاحد لها ، فلم أكن أحمل لشئ هما . ولولا ماكان ينتابنى من قلق منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحى وجسدى ، لملأت الحياة صفاء خالصا »(٤٢) .

ونجاح كامل مع عنيات لأنها الشئ الآخر الذى يبعده تماما عن صورة

---

(٣٨) الرواية : ص ٥٥ .
(٣٩) الرواية : ص ٤٨ -٤٩ .
(٤٠) يوسف الشارونى : المرجع السابق ، ص ٥٥ .
(٤١) الرواية : ص ٢١٠ .
(٤٢) الرواية : ص ٢١٣ .

أمه ويحرره من أسرها . يقول بردياثيف « والجنس من الأسباب الرئيسية للعزلة الإنسانية والإنسان كائن جنسى ، أى أنه نصف كائن... منقسم وناقص يسعى إلى أن يكون كاملا . والجنس يحدث انقساما عميقا فى « الانا » التى هى بطبيعتها ثنائية الجنس ، فهى ذكر وأنثى : — وهكذا نرى أن محاولة الإنسان فى التغلب على العزلة عن طريق الاتحاد الروحى هى أساسا محاولة للتغلب على العزلة التى يسببها الجنس لتحقيق الاتحاد بالتكامل الجنسى ، ووجود الجنس يقتضى الانفصال والحاجة والشوق والرغبة فى أن يجد المرء نفسه فى الآخر . بيد أن الاتحاد الجسدى للجنسين — وهو الذى ينهى الشهوة الجنسية — ليس فى حد ذاته كافيا للقضاء على العزلة ، (كما حدث مع كامل وعنيات) بل إنه على العكس من ذلك قد يزيد من شعور الإنسان بعزلته (وذلك فهو يتمسك برباب التى يجد فيها الروح) وقد يكون الاتحاد الجنسى وتكوين الأسرة انتصارا وتخفيفا من الشعور بالعزلة إلى درجة ما . ولكنهما لايستطيعان القضاء على العزلة قضاء مبرما . . . والحب والصداقة هما أمل الإنسان الوحيد فى الانتصار على العزلة » (٤٣) .

والنص السابق يمكن للباحث أن يقيم عليه تحليل شخصية « كامل » من حيث هى شخصية هامشية . فالنص يبين كيف يتأزم السلوك الاجتماعى للفرد . بمعنى أنه يبين العلاقة بين الغريزة الجنسية (وهى محور أزمة كامل) وبين السلوك الاجتماعى الهامشى * .

---

(٤٣) برد ياثيف : العزلة والمجتمع ... ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(*) من المؤكد أن ليس كل هامشى مغتربا على حين أن كل مغترب هامشى بالضرورة . بمعنى أنه إذا افترضنا أن المثل الأعلى للإنسان هو الوصول إلى التوازن بين الذات والموضوع بين الذات والمجتمع أو العالم الخارجى . فبقدر اقتراب الإنسان من التوازن تنتفى الهامشية والاغتراب وبقدر التنافر يكون التنائى ، وإن المجهود الواعى الذى يبذله بطل الاغتراب للإنتماء والوصول إلى التوازن ، هو فجر الشخصية الإيجابية ، فجر البطل الإيجابى إذ أن البطل المغترب يكون بالضرورة مثقفاً ، واعياً بذاته وبمجتمعه . وهو يمثل « الجديد » بالنسبة لهذا المجتمع . ومشكلته هى عدم القدرة على التكيف الاجتماعى مع بيئته الهابطة ، ولكنه فى =

وما سبق يلقى مزيداً من الضوء على الثنائية التى يعانى منها كامل. فالجنس إلتقاء بين البدن والروح أو هى المحاولة الوحيدة التى يرتبط فيها عالم العاطفة بعالم المادة هى محاولة للإلتقاء بل الاندماج بين كائنين بشريين ، كل منهما منفصل عن الآخر .

وكانت محاولة ، الاندماج هذه بالنسبة الكامل هى محاولة تهدف فى عمقها

=الوقت نفسه يشعر بمسئوليته . هذا الشعور بالمسئولية هو بذرة الإيجابية . فالمغترب هنا يمثل المثقف غير العادى المتفوق Abnormal بالنسبة الوضع المنشود الذى يصبو إليه . هذا الوضع الذى يعد بهذا المعنى الـ Abnormal العادى المنشود . والهامشى يمثل أيضاً الـ Abnormal ولكنه لا يرقى إلى مستوى المغترب . على أن تعريف الإنسان الهامشى الذى قدمه ستونكويست M. Y. Stonequist يشى فى عمق معناه إنما يعانيه البطل المغترب الذى يعد – فى التحليل الأخير – ثمرة وعطاء لموقفين حضاريين مختلفين متباينين فهو يقول فى تعريفه : الشخص الهامشى شخص قضت ظروفه بأن يعيش فى مجتمعين ، وفى حضارتين ليستا مختلفتين فحسب بل ومتعارضتين . ويزيد على ذلك كرتشى وكرتشفيلد وبلانش أن الأشخاص الهامشيين يحتلون موضعاً بين جماعتين لكل منهما معاييرها وأساليبها الخاصة فى الحياة وهو موضع يحوطه كثير من الغموض وعدم التحدد . وفى هذا الموضع تتنازع الشخص دوافع مختلفة بعضها يدفعه إلى الرغبة فى الارتباط بإحدى الجماعتين والبعض الآخر إلى الانتماء إلى الجماعة الأخرى ، وفى الوقت نفسه لا تقبله أى من الجماعتين قبولا تاماً . والنتيجة فى معظم الأحيان أن يقع الشخص فريسة لصراع نفسى شديد يزكيه كون مقتضيات الانتماء إلى إحدى الجماعتين تتعارض مع مقتضيات الانتماء إلى الجماعة الأخرى . أنظر د. مصطفى سويف : التطرف كأسلوب للاستجابة ... ص٤٢، ٤٣ على أن المعنى الاصطلاحى للإنسان الهامشى هنا أكثر دلالة وانطباقاً على البطل المغترب. منه على الإنسان الهامشى السلبى ، الذى يتأثر بالأحداث والمواقف ولا يؤثر فيها . يقول آخر إنه ينفعل ولا يتفاعل . إن المغترب يشعر بغربته وبمجتمعه فى آن واحد . وإن كان مجتمعه لا يشعر بأنه متخلف أو مريض . إنه هنا يمثل الوجه الإيجابى من العزلة إن صح التعبير . أما الهامشى فسلبى لا يتحرك . هو غريب ولكنه لا يشعر بغربته بل يلقى التبعة على الغير وينكفىء على ذاته فى رومانسية مريضة . خذ على سبيل المثال « عايدة » فى (إلى واحلة) ليوسف السباعى و« عبد العزيز » فى (بعد الغروب) لعبد الحليم عبد الله إنهما شخصيتان هامشيتان وهما « دالتان » على فئة معينة بذاتها تعيش فى مجتمعنا ، فئة أشبه بالنباتات الطحلبية تطفو على السطح فما لها من قرار ولا جذور . هما مغتربان سلبيان على العكس من « اسماعيل » فى « قنديل أم هاشم » ليحى حقى البطل الإيجابى الذى جاء نموذجاً للفهم الموضوعى لطبيعة المجتمع وظروفه وحاجاته ومثالا لاهتمام المثقف بالقضايا والمسائل العامة لبلده والنهوض به .

أ إلى التحرر والانفصال من الحبل السرى الأموى والتطلع إلى تكامل إنسانى. إكمال النقص والخروج من عالم الذات .

* * *

ومن الملاحظ أن الرواية تكاد تنفرد بنموذج واحد هو كامل ، معبرة عن وجدانه الباطن وتجربته العاجزة : كما أن البناء الروائى اتخذ من وجدانه المريض إيقاعا متتابعا فى اتجاه واحد إما بالعودة إلى الماضى مع الذكريات أو إلى المستقبل مواكبا لحركة الأحداث ونموها. فالوجدان السقيم هو الإيقاع الرئيسى . وقد تحكم هذا البناء فى الشكل الروائى فبدت الرواية وكأنها وثيقة نفسية فباستثناء البطل الذى تابعنا تطوره إلى منتهاه، تبدو مصائر الشخصيات ثابتة من أول الرواية إلى آخرها وكذلك الأب والجد . أما رباب فإن اختيانها ليست مستبعدة وإن لم يمهد لها الكاتب فى الرواية ، لكن بالنسبة لكامل كانت مفاجأة وهى ليست غريبة على شخصيته المحطمة، وهذا دليل على مدى الفقر والتهافت فى بناء شخصية البطل الهامشى .

٢ ـ أزهـار الشوك*

«كانت الحياة تبدو له كأنها لغز تسنح فيه أحياناً سانحة من الهدى توشك أن تبعث إليه شعاعا من إدراك حقائق الوجود ، لكنها كانت لا تلبث أن تختفى عنه كأنها ومضة برق فى ظلام ، فيرتد إلى حيرته وقلقه متلهفاً على أن تلك الومضة لم تلبث فيها إلا قليلا ثم خلفته وراءها فى ظلامه »

الرواية ص (٤١)

ـ ١ ـ

رأى فؤاد يوما فى بعض وقفاته عوداً ضئيلا تتقاذفه الأمواج على سطح الماء ، تعلو به ثم تنحدر ، وتتجه به إلى اليمين تارة ثم تلقية إلى اليسار ثم إذا دوامة شديدة تجذب العود إليها فتدور به لحظة ثم تبعث به إلى الأعماق. وكأن هذا المنظر كان وحيا هبط عليه ، فبدا له أن البشر ليسوا فى الوجود سوى هنة مثل ذلك العود الضئيل والقضاء يقذف بهم حيث يريد . إنهم يأتون إلى الحياة بغير أن يريدوا حياة ، وهم يمضون فيها حتى يخرجوا عنها ، سواء طالت أيامهم أو قصرت ...

هذا ما بدا له فى وقفته ، فما انصرف عن جانب النهر حتى كان قد وقرت فى قلبه عقيدة ، وأحس بأن ثقل الحيرة قد ذهب عنه . فإن أحوال هذه الحياة لا قيمة لها ولا عبرة بها. فلا الفقر ولا الغنى ولا السلطان ولا الضعف ولا شئ من ذلك كله يستحق من الناس لفتة . وإذا كان للناس غاية فى هذا الوجود ، فإنهم جميعا فيها سواء ، إنه الواجب الذى خلق الله له الكائنات جميعا عندما أمرهم بالوجود .

... أليس كل صنف من الحيوان ينشأ علقة ثم مضغة ثم يصير إلى التمام حتى تخبو فورته فيطويه الثرى ؟ »(٤٤) .

(*) ظهرت لأول مرة (١٩٤٨) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٤٤) الرواية : ص ٤٢ — ٤٣ .

بدت الحياة فى عينى فؤاد قبض الريح ، عاد من رحلة الحياة بحصاد الهشيم ، رجع بخفى حنين . وهذا الموقف الذى انتهى إليه كانت له تأثيرات عميقة فى حياته ، فقد بدلته حتى أحس أصحابه ما اعتراه من تغير. كان من قبل يأنس إلى مجالسهم ويقضى معهم قطعا من المساء فى سمر صاخب مرح ، لم يكن يدرك فيه سخفا ، وصار يحس فى مجالسهم ضيقا ولايكاد يجتمع بهم إلا فى ساعات المائدة ثم يقضى سائر وقته وحيداً وداخله من هذه العزلة ضيق جديد ، وأحس فى نفسه فراغاً ووحشة ، فكان يحس أحيانا حنينا مبهما وأحيانا يحزن حزنا خاويا لا يدرى له باعثا »(٤٥) .

هذا الموقف الهامشى المنعزل هو بؤرة أزمة البطل فؤاد التى تتراوح بين النزوع إلى الإقدام وبين النكوص ، بين السلبية والإيجابية. لكن كيف كان ذلك ؟

لن نستطيع أن نجيب على هذا السؤال إلا بمعايشتنا لبطل أزهار الشوك ، فـــؤاد .

— ٢ —

فؤاد طالب يدرس القانون بكلية الحقوق ، نشأ بقرية النخيلة وكان أبوه حسنى أفندى موظفا فى شبابه ثم غادر الوظيفة ؛ وآثر أن يعتزل فى الريف ، اشترى قطعة من أرض تجاور أرض النخيلة وبنى بها تلك الدار التى يقيم فيها مع زوجه . وفى العطلة الدراسية يعود فؤاد إلى قريته ليلقاه أهلها بود وترحاب من بينهم « رحومة » البدوى الذى يقيم بالقرب من عزبة والد فؤاد .

وكان لرحومة ابنة فى السابعة عشر اسمها « تعويضة » وكان فؤاد كلما رآها أعجب بحسنها كما يعجب بزهرة يانعة على حافة ترعة »(٤٦) . وقد

---

(٤٥) الرواية : ص ٤٤ .

(٤٦) الرواية : ص ١٢ .

تطورت هذه النظرة إلى الإحساس بشعور جديد كان يزيد كلما مر عليه يوم . وصار يجد فى كل يوم ميلا قوياً يدفعه إلى الذهاب نحو حقلها وإن لم يكن فى الحقل ما يدعو إلى ذهابه (٤٧) .

وقص « رحومة » على فؤاد مصير « سلومة » شقيق « قوية » الفتى البدوى وما حدث بينه وبين « إبراهيم ميسور » الرجل الإقطاعى من القطيعة . وكان « سلومة » فى أول أمره فى عزبة حسنى أفندى ثم إتصل به أحد أعيان الريف — إبراهيم ميسور — « فحبب إليه أن يكون عنده ، وكان ذلك الرجل يكثر من مثله ليكونوا له أتباعاً : فانتقل إليه مع أمه وأخيه قوية . وكان ميسور يدفع عنه أذى الأقوياء ، وإذا أجرم جريمة أسبل عليه جاهه وأقام له محامياً حتى يبرئه . لكن ما لبث أن انقلب سلومة على صديقة القوى فكشر له عن نابه ، فلم ينم عنه ميسور ، حتى بعث به إلى السجن ليلقى جزاء جرائمه » (٤٨) .

وأراد قوية أن يزور شقيقه سلومة فى السجن فأبدى فؤاد رغبة فى أن يصحب قوية ، تعبيراً عن مشاركته فى همومه وتأكيداً لمشاعره الودية . فماذا كان موقفه ؟ ذهب مع قوية وأمه :

« ورأى فؤاد أنه واقف على مقربة منهما لا يفيدهما شيئاً ولا يدرى ماذا ينبغى له حيالهما . أيتركهما حتى يفرغا من أمرهما كما يتهيأ لهما ؟ أم يذهب مع المرأة إلى حارس الباب فيقول له إنه جاء معها لعله يظهر له إعظاما فيساعدها على إيصال الصرة إلى ولدها السجين ؟ وأحس فى نفسه حنقا شديداً ، إذ بقف هناك كأنه أحد أولئك الجالسين تحت شجرة فى صغار . ولكنه لم يتحرك لشئ ووقف ينظر إلى من حوله كأنه يلهو بمنظر فى مأساة » ، وعندما حاولت الأم أن تستقبل ابنها ومنعها الحارس « فار الدم فى رأس

(٤٧) الرواية : ص ٢٥ .

(٤٨) الرواية : ص ٨ ، ٩ .

فؤاد وهو واقف فى مكانه شاعراً بما يشبه أن يكون إهانة . أليست المرأة معه ؟ ولكنه مع ذلك وقف جامداً . . . لم يدر فؤاد ماذا يصنع ولا كيف يحتال فى موقفه المحرج الذى دفعه إليه الفضول والتسرع ، واعتراه ذهول يمتزج به الحنق والخجل . فما زال فى موضعه ساكناً حتى تحركت العربة وسارت تحمل من فى جوفها . وكان لابد له من أن يشرب الكأس حتى ثمالتها . فانتظر إلى أن استطاع قوية أن يدفع أمه ويسير بها . . . وساروا فى الطريق صامتين والأم تكتم عويلها حتى بلغوا المحكمة فوقفوا عند بابها . ولم يستطع فؤاد أن يصبر فوق صبره فترك صاحبيه حتى يفرغا من أمرهما وذهب إلى مقهى قريب فجلس حائراً » (٤٩) وهكذا أحس فؤاد أنه تورط بمشاركته قوية فى زيارة أخيه . فما كان أغناه عن هذا التورط طالما أنه كان يشعر فى أعماقه أن فى ذلك مساساً بكبريائه . وفؤاد يعلم جيداً أن وجوده لن يغير من مسار الموقف شيئاً ولكنه حاول أن يقوم بدور الإنسان كبير القلب ففشل . أراد أن يتقدم نحو المشاركة الاجتماعية العامة ولكنه لم يلبث أن نكص على عقبيه ، مضى ولم يعقب . وسيتكرر هذا الموقف المذبذب دائماً .

أحس فؤاد أن هناك عاطفة قوية متبادلة تربط بين قلبى تعويضة والفتى البدوى قوية أزكاها كونها من طبقة واحدة ومن البدو . وقد نكص عن أن يتقدم خطوة إيجابية للارتباط بتعويضة ؛ وهذا شئ طبيعى للفواصل الاجتماعية بينهما . لذلك أحس أن جداراً يقوم بينهما . ولم يكن هو وحده الذى يعرف البون الذى يصل بينهما ويحس به « تعويضة أيضاً » — ليس قدر المقام يا حاج فؤاد » (٥٠) هكذا جددت موقفها منه وهى تحاوره .

ومرت الأيام ، وانقضت العطلة الدراسية وتهيأ فؤاد للرحيل . « وقضى يوم سفره مع صورة تعويضة ، وهو يعجب كيف لم يدرك من

---

(٤٩) الرواية : ص ٢٢ .

(٥٠) الرواية : ص ٢٩ .

قبل أن الفتى سوف يتزوجها ، وجعل يجادل نفسه بما شاء من حجج ، ولكنها كانت تدفعها فى لجاجة التحدى ، وعاد إلى القاهرة شاعراً بأنه فقد أملا عزيزاً » (٥١) الحب الأول فى حياته .

لما فرغ من امتحانه النهائى ذهب إلى الإسكندرية ليستجم هناك ويهرب إلى الشاطىء « يحاول أن ينسى عنده ما مر به من سخافات » (٥٢) وهناك يلتقى ، صدفة ، بصديقه « سعيد » ولم يكن قد رآه ، منذ ثلاث سنوات قضاها فى دراسة الفن فى إيطاليا .

تعرف فؤاد على « علية » شقيقة سعيد وكان فؤاد كل يوم يرى فيها معنى جديداً كانت علية حسناء بغير شك — بل كانت أبدع من الصورة التى رسمها لها شقيقها سعيد — لكن شيئا غامضا كان يفرق بينهما وبين صورتها ، وكثيراً ما حاول فؤاد أن يكشف عن ذلك الفرق الغامض . فكان يرهف سمعه وبصره لكل حركة منها . كانت صورتها تظل باقية فى وجدانه بعد أن يخلو لنفسه فيمضى فى تأملها . لقد خلق سعيد فى صورتها راهبة وديعة تكاد عيناها تنمان عن عزوف عن الحياة على حين كانت علية فتاة طروب مرحة تملؤها الحياة (٥٣) . هنا نرى فؤاد يقوم بعملية إسقاط Projection لصورة فى ذهنه يريد أن يخلعها على الواقع ، فهو يستشف صورة الراهبة من صورة المحبوبة « علية » . وليس من واقعها المرح . هذا السلوك يشى بطبيعة فؤاد التى تخلق عالما من خيالها وتخلعه على الغير ، مثالية زائفة . أنه إنه يربك نفسه فهو الذى خلق المثال ويأمل فى الوصال مع الواقع ، مع حبيبته « علية » : وهو بين ذلك ممزق .

« ولكم خلا فؤاد إلى نفسه وحدثها عن علية الحية التى قضى اليوم معها وكان يحس تعلقا بها يزداد يوما بعد يوم وود لو استطاع أن ينظر إلى الحياة

---

(٥١) الرواية : ص ٤٠ .
(٥٢) الرواية : ص ٤٥ .
(٥٣) الرواية : ص ٦٦ .

كما تنظر هي إليها . . . وكثيراً ما كان يقرن صورتها بصورة تعويضة الإعرابية التي كانت لا تعرف الغرور ولا العجب ولا الزهو . ولكنه كان لا يلبث أن يعود من الموازنة بينهما نافراً حانقا يكاد يحس أنه قد ارتكب جرما . أكان ينبغي له أن يقرن صورة هذه الحسناء المنعمة المثقلة بصورة البدوية التي لا تستطيع أن تستمر في حديثها إلى ما بعد التحية والابتسامة ؟ كانت تعويضة كالقطة البرية إذا غاضبها أحد من قومها ، ولكن هذه الفتاة الوديعة كانت لا تعرف كيف تغضب ، بل كانت لا تعرف أن الحياة قد تسوقها إلى ما يثير غضبها » (٥٤) .

* * *

مكث فؤاد في الإسكندرية شهرا ثم عاد إلى قريته بعد أن تلقى من أبيه خطابا يطلب منه العودة لينظر في أمر مستقبله ويستشير فيه والده بعد أن ظهرت نتيجة الإمتحان وكان في مقدمة الناجحين . واحتفلت القرية بمقدم فؤاد ، وجاء إليه قوية بعد أيام يدعوه لشهود عقد قرانه على تعويضة وأفهمه أنه أرجأ إتمام القران لحين حضوره فرحب فؤاد . ومن عجب أنه عندما جاءه خطاب قوية وهو في القاهرة مزقه حانقا « وقضى ليله مسهداً كئيبا ، يلوم نفسه كيف نزلت به كيف يتجرأ مثل ذلك الفتى على دعوته في هذه البساطة إلى عرسه وارتدت إليه صورة تعويضة الإعرابية في جمالها الوحشي كأنها تكذبه فيما يدعيه وقضى عطلة العيد بالقاهرة » (٥٥) وليس من شك أن هذا التذبذب في السلوك والانتقال من طرف إلى طرف آخر مغاير تماما هو آية على الشخصية غير الناضجة » (٥٦) إن فؤاد حاول أن يرضي نفسه القلقة فماذا يفعل ؟ أقنع نفسه أنه « مهما يكن من أمره فقد أحس سعادتين إحداهما كلما تذكر علنيّة المنعمة الحسناء على شاطىء الاسكندرية والأخرى كلما تذكر

(٥٤) الرواية : ص ٦٧ .

(٥٥) الرواية : ص ٤٤ .

(٥٦) أنظر مصطفى سويف : التطرف كأسلوب للاستجابة .. ص ٨ ، ٩ .

أن تعويضة سوف تسعد بعد غد فى ليلة زفافها » (٥٧).

كان أبوه يريد له أن يلى عملا فى النيابة « وكان فؤاد يذهب بين حين وحين إلى القاهرة ثم يعود وهو فى حيرة لا يدرى أى سبيل يختار فى الحياة. ولكن أباه « كان ثابتا على رأيه لا يرضى إلا أن يكون ولده وكيلا للنيابة فهى الوسيلة إلى المناصب وهى أكرم الوظائف فى عينه قدراً » (٥٨) ومضى « فؤاد » يتردد بين الوزارة وبين أصدقاء والده لعله يحقق لأبيه أمله الذى كان عليه حريصا . أما هو فقد عادت إليه صورة العود الضئيل الذى كان يضطرب فوق موج النهر الفائر . فلما عرف بعد حين أن الوزارة قداختارته لمنصب فى النيابة لم يكد يحس فرحا » (٥٩) . كل حرصه أن يحقق لأبيه أمله فى أن يعمل بالنيابة . أما هو فعود ضئيل .

ومات الأب فجأة ، ووجد فؤاد ميلا إلى بيع العزبة فباعها إلى ابراهيم ميسور ليستقر فى القاهرة وكان بيع العزبة صدمة جديدة لقوية وتعويضة وكل من هناك من أهل القرية بعد الصدمة الأولى التى أصابتهم بموت الأفندى ووقع فى نفس قوية أنه لن يستطيع البقاء فى الأرض بعد أن صارت إلى ميسور الذى ألقى بأخيه إلى السجن ليلقى جزاءه على ما جنت يداه من آثام ومظالم وهو الذى كان محرضه الأول وحاميه (٦٠) ، وبعد أن بدأ ميسور يراود تعويضة عن نفسها وإن لم ينل منها ما يشتهى .

• • •

سنوات أربع مرت على فؤاد وهو يتنقل فى أنحاء البلاد إلى أن استقر فى دمنهور ، ويوما دق الجرس وكان المتحدث رئيس النيابة يأمره بالتوجه

---

(٥٧) الرواية : ص ٧٣ .
(٥٨) الرواية : ص ٧٥ .
(٥٩) الرواية : ص ٧٨ .
(٦٠) الرواية : ص ٨ ، ٨٢ .

للتحقيق فى جريمة سرقة فى عزبة ميسور . فأحس بقشعريرة فى جسده ودب فى قلبه شىء يشبه الرعب ، خشية أن يكون ذلك الرجل « الشاهد فى جريمة السرقة » قد رآه يوم زيارته لقوية ، أو سمع بتلك الزيارة أو يكون غيره قد لمحه عنده فأخبره . وماذا يكون موقفه منه إذا هو قال له فى وقاحة لقد كنت منذ أيام تنزل ضيفا على قوية (٦١) وبدأ الشك يلفه وتذكر رأى أبيه فى طبيعة قوية المزدوجة ، طبيعته التى تجمع الأضداد ، وصار كل همه أن ينظر إلى نفسه فيلتمس لها من هذا الحرج مخلصا ، وأطرق حينا يفكر فيما عساه يفعل فى هذا الموقف المنكر ، فلم يجد إلى الخلاص سبيلا إلا أن يعدل عن المضى فى التحقيق وينفض منه نفضا (٦٢) ورغم أن فؤاد حاول أن يستشف من قوية حقيقة الأمر (٦٣) ورغم أنه تأكد من سلامة موقفه ونقاء سريرته إلا أنه عاد إلى دمنهور وفى نيته أن يتنحى عن التحقيق فى تلك القضية تجنبا للشبهات . ونعمد فؤاد بعد ذلك أن يتباعد عن كل ما يتصل بقضية قوية ، تاركا صديقه لرحمة الأقدار . وقضى أسابيع طويلة ممزقا فى خواطره يلوم نفسه حينا ، ويعذرها حينا وهو فى كل ذلك يخشى أن يضيع الفتى ضحية المكر الخبيث ؟

ولكن الشواغل شغلته بعد ذلك عن أن يفكر فى أمر قوية إلا بين حين وحين ، فكانت صورة الفتى تتمثل له أحيانا كأنها تؤاخذه ، وكانت صورة تعويضه تبدو له كأنها تعاتبه فكان يدفع صورتهما فى شىء من الفزع ويبعد التفكير فيهما بهزة عنيفة (٦٤).

أرأيت كيف وصلت السلبية إلى درجة الجبن . وهكذا شأن فؤاد يتقدم ثم سرعان ما ينكص على عقبيه .

---

(٦١) الرواية : ص ١٢٧ .
(٦٢) الرواية : ص ١٢٩ .
(٦٣) اقرأ الرواية : ص ١٣٠ — ١٣٥ .
(٦٤) الرواية : ص ١٣٦ .

— ٣ —

عادت العلاقة بين فؤاد وصديقه سعيد بعد أن حالت ظروفهما دون اللقاء وتعرف على صدقى ابن عمة سعيد ، وهو طالب بمدرس الاقتصاد فى فرنسا وقد عاد لظروف الحرب . ومن البداية أحس بالنفور من صدقى وأحس فؤاد شيئا يشبه أن يكون خيبة وحنقا . فلم يلبث أن ضاق بذلك المجلس وود لو استطاع أن يفر منه هاربا وزاد الانقباض فى قلب فؤاد فكان يمانع نفسه قسراً من توجيه نظراته الحانقة إلى ذلك الفتى الجديد الذى طلع عليه فجأة ليسلبه حقه فى حديث علنيّة (٦٥) ورغم أنها أدارت الحديث بمهارة ووزعت اهتمامها بالمدعوين بلباقة واتجهت أثناء ذلك إلى فؤاد ببعض لفتات أزالت عنه بعض قبضته الأولى ودخلت فى الهو فقالت فى مرحها :

— لا مؤاخذة ياصدقى ، لقد تأخرنا . كنت أعرض على فؤاد حديقتى وعادت القبضة إلى صدر فؤاد عندما سمعها ومضى يناجى روحه أنه صدقى الذى أبطأت عليه فى تلك اللحظات القصيرة التى قضتها معه فى الحديقة (٦٦) وهكذا مضى يحتقر من شأن صدقى ويخلع عليه شخصية الفتى المدلل المخنث وذلك مداراة لعجزه هو عن مسايرة الموقف ومواجهة المحبوبة علنيّة والإفصاح عن مشاعره . لقد أحس بشعور العداوة Hostility تجاه صدقى ، أحس أنه هو المنافس Antagonist الذى يشكل القوة المناوئة فى حبه لعلنيّة . وفى الوقت نفسه فهو يحس فى أعماقه بحاجته إلى اكتشاف ذاته من خلال حبيبته فعندما نحب تولد شخصيتنا . ومن ثم يظل يشعر بالقلق وعدم الطمأنينة حتى يتم له اكتشاف المجال الذى تتنفس فيه قدراته بحرية لكن ماذا كانت النتيجة ؟ . لقد أصيب كذلك هو الآخر بالحصر كما سبق أن رأينا ذلك عند كامل روبة لاظ ويبدو أن جميع الأبطال الهامشيين يصابون بهذا المرض النفسى

---

(٦٥) الرواية : ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٦٦) الرواية : ص ١٤٩ .

Anxiety وهو يظهر فى صورة يكتشف فيها هؤلاء الأبطال أن حاجاتهم على وشك أن تلقى الحرمان(٦٧) لقد خشى فؤاد أن يتسرب الأمل من بين يديه ومضت عليه لحظات طويلة وهو يدير الأحاديث فى ضميره ، ولكنه كان كلما حاول النطق لم يستطع إليه سبيلا ، كانت الكلمات المتدفقة تقف عند لسانه كأنها ترتد عند سد (٦٨) ورغم تودد علّية إليه وإقبالها عليه فى بشاشة إلا أنه غادر الجلسة غضبان أسفا فقد هجم عليه الضيق فجأة حتى أحس أنه أشقى من فى الأرض (٦٩) وتعلل بأنه مسافر إلى دمنهور فى الغد . وعزم أن يقطع ما بينه وبين الاسكندرية فلا يزورها حتى لا تقع عينه على علّية مرة أخرى ولكن لم يستطع مع الوحدة صبرا . ووجد نفسه يركب أول قطار فى صباح الجمعة إلى الاسكندرية ويتوجه إلى منزل سعيد . ويقبل على أهله بمودة وكأن ما كان لم يكن . تأمل هذا التذبذب فى السلوك . إنه بعد أن يقطع حبل المودة وكل ما يربطه بالاسكندرية لا يستطيع فيعود ثانية ويدور حوار ونقاش حول الريف ومشكلاته . ومجرد أن يظهر صدق شخصيته فى الحديث نجد فؤاد قد إربدّ وجهه من الحزن . ويعود إلى دمنهور وهو كظيم وفى تلك الليلة كانت الوحشة تخيل إليه كأنه وحيد منبوذ . فما قيمة كل هذه الحياة التى كلما تعلق فيها بأمل وجده ينهار فى يده ويهوى به إلى الهوة المظلمة التى كان يحاول الخروج منها . وقد راجع نفسه من قبل مرة بعد أخرى وعللها بالأمانى وخادعها بالحجج ، ولكن ما جدوى كل هذا والحق واضح أمام عينيه أن كان يريد أن يعرفه . إن علية تحب هذا الفتى الوسيم الرشيق الأنيق. تحب صدقى الذى يعرف كيف يستميلها بلفظه المعسول وأدبه المزوق وبراعته فى الحديث ... كان كل شئ فى ذلك الشاب يعجبها حتى لون بدلته وربطة رقبته . وأما آراؤه — وهل كان لصدقى آراء ؟ فكانت

---

(٦٧) أنظر جوردن تيلر : ديناميات الجماعة ... ص ٤١٤ ، ٤١٥ .

(٦٨) الرواية : ص ١٤٨ .

(٦٩) الرواية : ص ١٤٩ .

تافهة ولكن عليّة كانت تقرها ، أو كان هو دائماً على وفاق معها فى آرائها ، فما تكاد تنطق حتى يتم لها قولها ، فإذا أتمه أعادت هى كل كلمة معجبة بكل حرف منها .

وأمتلأ قلب فؤاد بشئ يشبه الحنق أو الحقد على ذلك الشاب الذى خيل إليه أن المقادير قذفت به بينه وبين عليّة لكى يحرمه منها . وإلا فما الذى عاد به من فرنسا ، وقد كان له بغير شك فى فتياتها غنى عن عليّة ؟ وما الذى أقام هذه الحرب فى ذلك العام فلم يتقدم به ولم يتأخر كأن القضاء قد أثار تلك الحرب عمداً ليعود ذلك الفتى إلى مصر فى الوقت الذى عرف فيه عليّة؟(٧٠) تصور مدى السطحية فى تفكير فؤاد انه يصب لعنته على الأقدار التى جعلت من نشوب الحرب ذريعة لعودة صدقى من فرنسا ومنافسته فى حبه ؟ فهو يريد أن يتوقف العالم وتتحرك محبوبته لتقدم ولاءها قربانا .

وفؤاد يحاول أن يغطى عجزه وشعوره بالنقص Inferiority فيمضى فى ذكر مثالب عليّة وعيوبها ؟ وفى الحق أنها هى نقائصه هو وترددده هو ولكن هذه المحاولة لم تجده نفعا ، فكان بعد أن يطيل تأمل ما فى علية من عيوب يفيق إلى نفسه على خفقة من قلبه إذا تمثل ذلك الشاب (صدقى) جالساً إلى جانبها يحدثها ، كأن تأمله فى عيوبها قد زاده تعلقا بها . فكان لا يلبث أن يعود فيسأل نفسه لم لا تكون عليّة زوجة له فتخرجه من ذلك الظلام الذى يخيم على قلبه ، وتخلق منه شخصا جديداً يطرب للحياة ويعيش فى زحمتها ويتذوق مباهجها ومفاتنها(٧١) ويستمر فؤاد فى الإسقاط Projection كلون من ألوان ميكانيزم الأنا الدفاعية . ومعلوم أنه فى « عملية الاسقاط تعامل الدوافع التى لا يتقبلها الفرد كأنها تنتمى إلى غيره من الناس »(٧٢) وهنا

---

(٧٠) الرواية : ص ١٥٩ .

(٧١) الرواية : ص ١٦٠ .

(٧٢) د. يوسف محمود الشيخ ، د. جابر عبد الحميد جابر : سيكولوجية الفروق الفردية ، ص ٥٣٦ .

نرى فؤاد فى هجومه على صدقى إنما يكشف عن نقصه هو الذى يخفيه وراء ستار الهجوم الكثيف على منافسه. فهو يقول « إنه لأشد حاجة إلى مثلها من ذلك الشاب المرح الذى إذا انصف التمس له زوجة تصلح ما فيه من نقص (وكأن فؤاد يخلو من النقص) وتدخل إلى قلبه وعقله شيئا من الجد. ومع هذا فقد كان كلما تمثل صورته داخله شعور العجز الذى يقعد بالقزم عن مصارعة العملاق. وهو بقامته الضئيلة ولونه الأسمر وملامحه الحادة ونظرته التى تكاد تكسب وجهه مظهر العبوس الدائم الصارم، أكان يستطيع بهذا أن يهزم الشاب الباسم المرح المتألق الوسيم؟ كان صدقى يكاد يشبه الغادة الحسناء لولا صوته العميق وجذور الشعر الخضراء التى تغطى عارضيه. وماذا يضره من ضآلة أفكاره التى تشبه أفكار الصبية، أو تفاهة ثقافته ونظراته فى الحياة فمهما يكن من أمره فإن كل شئ فيه محبب عندها. فكل لفتة منه تسترعى إلتفاتها، وكل لفظة ينطق بها تستقر فى أذنها وهى تعرف ألوان كل قطعة من ملابسه، وهيئة كل حركة من حركاته حتى لقد كانت عينها أول عين لمحته عندما اقترب من البيت ... وقضى أيام الأسبوع شقيا ينتظر مضى ساعاتها البطيئة حتى يأتى يوم الجمعة المقبل ليراها مرة أخرى ويراجع نفسه لعل ما بدا له منها كان من وساوس الخيال. ولكن الأسابيع كانت تمر، ويعود من الاسكندرية فى أعقابها كل مرة بخيبة تزيد قلبه مرارة على مرارة(٧٣).

* * *

ويوما جاءته رسالة من رئيس النيابة يأمره فيها بالتوجه للتحقيق فى جريمة قتل ذهب ضحيتها أحد أعيان الإقليم « ابراهيم ميسورة » فقد سأل نفسه وهو يسرع فى طريقه إلى القرية أما كان لقويه يد فى تلك الجريمة؟ ألا يكون قويه قد سجن ظلماً فلما خرج من سجنه دبر للرجل فاغتاله؟ وحاول أن يشغل فكره بما حوله »(٧٤) وما أن وصل إلى القرية حتى سأل أهلها عن قوية بن سلام فأجابه العمدة بأنه فى المنفى فقال فؤاد فى لهفة، كأنه نجا من خطر وكم مضى

(٧٣) الرواية : ص ١٦١ .

(٧٤) الرواية : ص ١٦٢ .

عليه فيه ؟ فأجابه العمدة – منذ أسبوع . وعلم أنه لم يسجن لعدم ثبوت أدلة الاتهام ضده . ولكن الحكومة لا تترك مثله فى هذه الأيام السوداء ليفسد فى الأرض .ليس فى مثل هذه الأيام فراغ لأمثال قوية (٧٥) وقد حاول فؤاد أن يستدل على الجانى لكنه فشل ، وطاف بذهنه أن تكون تعويضة خاصة وأنه علم أن القتيل سبق أن راودها عن نفسها فأبت . وانتهى من التحقيق بأن نسب الجريمة إلى مجهول . ولا يدرى إن كان نقله إلى الصعيد عقب فراغه من التحقيق عقوبة على إخفاقه أم كانت لطفا ساقته اليه الأقدار (٧٦) وحين ذهب إلى الصعيد شعر كأنه هارب من موطن ذاب عبثت فيه الأقدار بقلبه وضميره وحياته ، ولاذ بما وجده هناك من آثار العالم الغابر يحاول أن يجد فيه ما ينسيه حاضره (٧٧) وهذا الموقف الذى لجأ إليه فؤاد سبقه إليه كل رومانسى أصيل – وفؤاد رومانسى حتى النخاع – يفزع إلى الماضى متجسداً فى آثاره وأطلاله ، يحاول أن يستنطقها بعد أن عز الوصال مع الحبيب . يمضى فؤاد ويتفلسف عن الإنسانية وهمومها ويحاول أن يسمو فوق حقارة الحياة وقسوتها وتتداعى إلى ذهنه وهو فى إحدى جولاته بين الآثار صورة تعويضة وعلّيه وكانت إحداهما تعصر قلبه رحمة وحزنا والأخرى تطعنه خيبة ووحشة . وكان يتمنى أحيانا لو جالت علّية معه بين تلك الآثار ...إذن لاستطاعت أن تدرك مبلغ ما ضيعت عليه وعلى نفسها ، بإيثارها فتاها الأجوف الذى لا يزيد على قطعة من جسد فإن ثم سرعان ما يتمرد على نفسه ويفيق من أحلامه الثائرة هامسا فى نفسه . أهذا هو الفتى الضحل الذى ارتضته وآثرته عليه ؟ . ثم يثور على خياله الذى يطوح به إلى مثل ذلك الوهم البعيد . ويتساءل ما كان أحراه أن يتجه به إلى نفسه؟ ألم يكن هو الذى تركها تنفلت إلى ذلك المنافس الجرئ ؟ لقد كان فى استطاعته بغير شك أن يستميل قلبها لو كشف لها يوما عن حبه صريحا قويا ، فلا يقوى ذلك المنافس الأجوف على أن يهزمه عندها...ولكنه هرب

---

(٧٥) الرواية : ص ١٦٥ .

(٧٦) الرواية : ص ١٧١ .

(٧٧) الرواية : ص ١٧٢ .

من ميدانه فى شئ لا يقل عن الجبن والضعف كأنه طفل ينصرف إلى مخدعه باكيا ينتظر من أمه أن تلحق به فتسترضيه رأفة به ورحمة لضعفه(٧٨) وهذا اعتراف نفسى خطير من فؤاد بعجزه وضعفه وتردده . كان يطـوى أياما طويلة مترددا فى نزاع شديد بين ميله وكبريائه حتى تتغلب عليه الكبر يا ءآخر الأمر فيعدل عن السفر ويقبل على عمله فى عنف ، أو يخرج إلى نزهة أخرى بين الآثار ليسرب شجونه بين أطلالها(٧٩) .

— ٤ —

ويسافر فؤاد إلى لبنان للاستجمام . وهناك يلتقى صدفة أيضا ، بعليّة ويعلم أنها حضرت وتركت زوجها فى القاهرة وأنه سيسافر إلى فرنسا مع بعض رفاقه دون أن يصحبها معه ويحس فؤاد أن العلاقة بينهما ليست على ما يرام ولكن نفسه الملتوية تتشفى منها أليست هى التى اختارت زوجها ، وآثرته عليه ، ووجدت فيه قصارى أملها ؟ . . . ومع ذلك فإنه لم يخل من شعور يشبه أن يكون ارتياحا عندما علم أن عليّة لم تكن سعيدة فى زواجها.. كان شعوره يشبه أن يكون شماتة لن يستطيع أن يقاوم الاسترسال فيها حينا . لقد فضلت صدقى عليه ولم تستطع أن تتغلغل إلى ما تحت ظاهره الخادع فهى تلقى جزاء قلة بصرها وسوء اختيارها . . . لقد كانت هى عليّة التى رأى صورتها أول مرة فى مرسم سعيد ، صورة الراهبة فى الثياب البيض ! أهذه الصورة الوديعة هى التى اختارت صدقى وآثرته وغرّها لألاء مظهره ؟ أهاتان العينان الزرقاوان الصافيتان هما اللتان لم تستطيعا النفوذ إلى أعماقه لتبصرا ما هناك من حب صاف ؟ أم كان هذا كله من صنع خياله ولم تكن عليّة سوى أنثى من الحيوان ، فاختارت من استطاع أن يشق طريقه اليها فى قوة غير متردد ؟ أكانت زلة منها أم هى زلة منه . عبثة من عبثات المقادير التى تحمل البشر فى تيارها كما يحمل تيار النيل العود الضئيل الذى رآه من قبل..؟

---

(٧٨) الرواية : ص ١٧٤ .

(٧٩) الرواية : ص ١٧٤ — ١٧٥ .

وعادت إلى قلبه تلك الامنية التى تسللت اليه عندما سمع بشقائها فى زواجها إنه مازال حراً فارغا لها لا ينتظر إلا أن تزول العقبة التى تحول بينه وبينها . ولكن أكانت هى ترضاه لو عاد اليها ؟ أما كانت هى التى اختارت زوجها عليه أول مرة ولم تستجب إلى نداء قلبه الخفى الذى كان يصيح بها كلما آها ؟ أما كانت جديرة إذا هى فارقت زوجها أن تعيد الكرة فتؤثر عليا فى آخر تؤثره عليه مرة أخرى فتزيده شقاء على شقاء ويجرح عزته وتدمى قلبه وتزيده عزفاً عن الحياة ؟(٨٠) وهكذا تكشفت نفس فؤاد اللولبية ومع هذا فهو يحاول أن يبدو بمظهر الإنسان المثالى ، كبير القلب الذى يعلوا على المعركة ، والمعركة جزء منه وهذا هو الموقف الرومانسى الزائف .إن فؤاد بعد أن علم بالخلاف بين علية وصدقى أرادأن يستثير غيرته عن طريق إرسال برقية اليه يخبره فيها أنه فى بيروت . وتنجح الخطة ويعود الوفاق بين علية وصدقى .

ويبدو أن فؤاد لم يكن صادق السريرة فى إتمام الصلح بينهما إذ عاد الى حنقه القديم على نفسه إذ يتهمها بأنها جنت عليه كما جنت عليها . وتذكر كيف كان يلقاها ويتحدث اليها ويخرج معها إلى المنتزه ثم كيف كان يكبت ما فى نفسه فلم يبح مرة لها بحبه ، بل انه لم يشر اليها بكلمة تنم عن حبه لها زاعما لنفسه أن مناجاة الحب أرخص من أن يسوقها اليها . كان يوهم نفسه بأن حبه اقوى ان يلبث يصل إلى قلبها بغير حاجة إلى غلط يقلل من صفائه وصدقه وقوته(٨١) وهو فى أعماقه يتمنى أن تزول العقبة التى قامت بينهما(٨٢) كيف تتفق الرغبة فى القضاء على الزوج مع إظهار الرغبة فى الوفاق بينهما ؟ فبعد أن عادت المودة بين صدقى وعلية كان فؤاد أشد الجميع عجبا من تغيره : إذ وجد منه مودة صريحة لم يكن من قبل يتوقعها ، كأنه قد حفظ له حسن

---

(٨١) الرواية : ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٨٢) الرواية : ص ٢٠١ .

(٨٣) الرواية : ص ٢٠٧ .

صنيعه فى إصلاح مابينه وبين عليّة . ولم يكن عجب فؤاد من صدقى بأقل من عجبه من نفسه كلما خلا اليها وتأمل أعماقها ، كان عندما عرض على عليّة أن يبعث فى طلبه انما يطيع عقله ويندفع مع سورة طائلة بعثها فيه حديثه مع عليّة ، فقد حركه حزنها ودفعته ثقتها إلى أن يسمو فوق حبه وأنانيته وحنقه . ولما سألها سؤاله : أتحرصين على صدقى وسمع قولها « من أجل ولدى ؟ » جزفه فكره فأنساه كل شىء سوى أنه أمام أم تثق فيه مثل أخ لها ، فلا ينبغى له إلا أن يكون عند ثقتها .

فلما مضى ذلك اليوم واضمحلت تلك السورة عادت اليه الشكوك وكاد يلوم نفسه على أنه فرط فى حق نفسه وفى حقها مرة ثانية فساعد على إعادتها إلى ذلك الزوج الذى لا يستحقها(٨٣) وعندما يقول له صدقى : — تشجع يا فؤاد حتى يكون لك مثل نونو ابن صدقى تجده يناجى نفسه سأنتظرها إذن طويلا(٨٤) .

وبعد عودة فؤاد من لبنان يسافر إلى طنطا وهناك يلتقى صدفة بقوية ولكن بعد أن ذهب عقله لما عرف أن تعويضة هامت على وجهها . ووقف فؤاد عند مدخل السرادق ينظر فى أعقابه فى حسرة حتى غاب بين الجموع الزاخرة ، وصعدت إلى ذهنه صورة العود الضئيل الذى تتقاذفه الأمواج فوق اللجة المضطربة ، تقذف به يمنة ويسرة حتى تبتلعه الدوامة فى أعماقها(٨٥)

— ٥ —

هذا هو العود الضئيل فؤاد الذى يواجهنا فى رواية « أزهار الشوق » بطل هامشى ضعيف العزيمة ينكص عن مواجهة الحياة ويتخيل أن العالم قد ملىء شراً وأن الناس لا خير فيهم والحياة لا قيمة لها فلا الفقر أو الغنى أو أى

---

(٨٣) الرواية : ص ٢٠٧ .
(٨٤) الرواية : ص ٢١٠ .
(٨٥) الرواية : ص ٢١٦ .

شيء في الحياة يستحق من الإنسان لفتة . لماذا ؟ لأنه فشل في حبه ، واستسلم لهذا الفشل استسلام العاجز الضعيف . فذكر مواقفه مع قوية ، وحبه الصامت لعلّية وتصوره أن الحرب قد قامت لتلقى بهذا المنافس يقف بينه وبين محبوبته وحتى في محاولته الإيجابية للتوفيق بين صدقى وعلّية كانت إيجابية زائفة وغير مقنعة يراد بها التعويض عن الفشل والشعور بالتعفف بعد أن أفلتت منه الفرصة فلا سبيل إلى ردها . وهذه المثالية الزائفة من أبرز صفات الشخصية السالبة(٨٦) .

* * *

ومن آيات الفقر في بناء شخصية البطل الهامشية أنه لم يحاول أن يساهم مساهمة إيجابية في التأثير على الأحداث والمواقف بل إنه يكتفي بدور المتلقي وترتب على ذلك أن لعبت الصدفة دوراً رئيسياً في الرواية . فالصدفة هي التي جمعت بين فؤاد وسعيد ، وهي التي جمعت بين فؤاد وعلّية في لبنان ، وهي أيضا التي جمعت بينه وبين قوية بعد أن ذهب عقله . وهكذا فالأحداث تعرض للبطل فيتعلق بها كالقشة أو على حد تعبيره كالعود الضئيل . وطبيعي والحال هكذا إلا يكون له أدنى تأثير في المواقف . ومن المؤكد أن المواقف كانت ستتغير عن الصورة التي ظهر بها البطل لو أنه كان أكثر فاعلية وإيجابية . ومن ثم خلت الرواية — أو كادت — من الصراع اللهم إلا ذلك الصراع الضحل بين البطل وذاته والذي أظهرنا على شخصية منقسمة على نفسها ، شخصية لولبية لا يقر لها قرار . وهنا يكمن التطور والنمو فيها . وليس الأمر كذلك بالنسبة لسائر شخصيات الرواية ، فهي شخصيات سالبة مسطحة سواء علّيه أو صدقى أو سعيد . إذ جاءت خالية تماماً من الأبعاد . وقد ترتب على ذلك أن الباحث في الرواية يلمس التصدع في البناء الروائي . بمعنى أن ثمة انقساما شرخ الرواية جزئين منفصلين يربط بينهما عود صئيل — فؤاد — تتقاذفه الأمواج . وطبيعي أن تكون المواقف زئبقية ، تمور موراً ، واستتبع

---

(٨٦) د. عبد القادر القط : في الأدب المصري ، ص ١٧ .

ذلك السطحية وافتقاد العمق فى المواقف التى واجهت البطل نتيجة التصدع فى البناء الهندسى للرواية من جانب ونتيجة لهامشية البطل وانعدام تأثيره فى الأحداث من جانب آخر » (٨٧) . خاصة وأن أحداث الراوية تقع فى الريف والمدينة . فأحداث الرواية وشخصياتها فى المدينة تكاد تكون منقطعة الصلة بأحداثها وشخصياتها فى الريف وكأنما نحن أمام قصتين منفصلتين لا رابط بينهما إلا شخصية البطل العاجز عن التأثير فى المواقف التى تعرض له .

---

(٨٧) د. عبد القادر القط : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٣ ــ شجرة اللبلاب (*)

« آه . . لكأنى أعيش فى غابة من شجر السنط لازهر فيها ولا ثمر »
الرواية (١٠٢)

« إننى أعرف نفسى كما وصفتها لك من قبل ، إننى شاب هادئ الظاهر مضطرب الباطن كأننى مستنقع تغطى خضرة البشنين كدرة مائه »

الرواية (١٤٧)

« حسنى »

يقف بنا حسنى بطل رواية « شجرة اللبلاب » ــ فى الفصل الثانى عند مشهد محورى فى حياته تصدعت على آثاره نظرته للحياة فأصبح متردداً شكاكا فى جوهر العلاقات الإنسانية : المرأة . يقول حسنى : « هناك على كنبة يكسوها غطاء أبيض ممزق رأيت زوجة أبى وابن عمها محفوظ غائبين فى قبلة لم تكن خاطفة فاستطعت أن أدرك ما كان يفعلان . كان ظهره إلى ناحية الباب وكانت هى مواجهة له فرأيت وجهها أو رأيت منه ما أمكن أن يظهر من وراء وجهه . ورأيت ذراعها البضة البيضاء التى لم يكن كمها يغطى إلا نصفها وهى على كتفه المواجهة لموقفى . كان رأسها مائلا إلى الوراء وكان وجهها بين كفيه فلما أحسا بى اعتدلا فى جلستهما . ورأيتها تعيد منديل رأسها إلى موضعه من جبينها وكان قد انحسر إلى الوراء حتى غطى نصف شعرها من خلف . وجعلت يداها تفعلان هذا وشفتاها تتحركان ولكننى لم أسمع كلاما . ثم استدار هو نحوى فرأيت صفرة كالحة تمشى فى لونه الأسمر . ربما كان كل ما رأيته وهما ، إلا صميم الحادثة ، فإنه كان يقبلها بلا شك » (٨٨) ويعلق حسنى على هذا المشهد بقوله : « آه . . . لسنا يا صديقى إلا ثمرة لعدة تجارب ونتيجة لعدة مشاهد تختبىء داخلنا

(*) ظهرت الطبعة الأولى للرواية سنة ١٩٥٠ ، الناشر مكتبة مصر .

(٨٨) الرواية : ص ٤٢ .

إبان سنواتنا الأولى ثم تحركنا من حيث لا نشعر فنندفع بها كما يندفع « البالون » بالغاز . وإنك سترى أثر هذه الحادثة فى نفسى عندما أعرض لأحداث شبابى » (٨٩) .

وقد تسلطت هذه التجربة على حياته ، فتركت بقعة سوداء فى نفسه امتدت رقعتها حتى احتوت الجنس الثانى . ومواقف حسنى بطل الرواية — من وقائع الرواية هى فى جوهرها إسقاط لخبرته السابقة . إنه لم يستطع الانتقام من « أم ربيع » زوجة أبيه فحاول أن ينتقم من شخص أم ربيع فى الجنس كله . وقد سقط هذا المعنى رغما عنه وهو فى مناجاته واعترافاته ألم يقل أنه يريد المرأة ليتحكم فيها لا ليحبها وسنرى من معايشتنا للبطل أبعاد أزمته الروحية .

— ١ —

ماتت أم حسنى وهو طفل ولم يلبث أبوه أن تزوج من امرأة أخرى أنجبت ولداً أسماه « ربيع » وبقى حسنى مع شقيقته هنية فى منزل أبيه . وحين تزوجت هنية ظل بمفرده مع امرأة أبيه « أم ربيع » إلى أن أتم دراسة المرحلة الإبتدائية فجاء إلى القاهرة لاستكمال دراسته الثانوية .

أقام حسنى عند شخص يدعى « عم غانم » وهو صاحب محل ألبان . لكنه بعد أن نال شهادة الكفاءة وبدأ يجتاز السابعة عشرة من عمره بدأت أم فوزية — زوجة عم غانم — تنظر إلى حسنى على أنه رجل فأخذت تخفى عنه بعض أعمال كانت لا تبالى أن تقوم بأدائها أمامه . وهنا يتساءل حسنى أهى مثل « أم ربيع » ؟ !. يجوز ! ! ولكننى لم أر شيئا حتى الآن(٩٠)ولم يلبث أن أبدى « عم غانم » رغبته إلى خاله فى أن يترك حسنى منزله . ويحكى لنا حسنى أسباب توتر العلاقة بين حسنى وعم غانم إذ شاهده وهو

---

(٨٩) الرواية : ص ٤٣ .

(٩٠) الرواية : ص ٦٣ .

يمشي مع امرأة يعرفهما حسنى جيدا « كنت ألمح فى عينيها معانى غريبة حين تلاقى عم غانم أمام باب الدكان لأمر ما . إنها جميلة ، هى بلا شك وجه لا يمت بأى صلة إلى الوجه الذى يقتنيه . إن صدق ظنى وكانت هى ، إذن فلا فرق بين الجميلة والدميمة منهن ... كلهن خائنات على اختلاف درجاتهن فى الملاحة . أليست هذه غاية فى الجمال ، وأم ربيع متوسطة ، وأم فوزية صفر منه ؟ » (٩١) ودائما ما « كنت أرى عم غانم من قبل وفى كثير من الأحيان يدمن النظر إلى إحدى النوافذ التى تواجه دكانه ، وكنت أرى من وقت إلى آخر فى هذه النافذة وجه امرأة : وقد لاحظت مع الأيام أنها تبادله الابتسام ثم تنهال على وجه وليدها بالقبل ، ثم التقيا على الطريق(٩٢) وامتدت رقعة الشك لتشمل أم فوزية ، دخلت « فى نطاق المتهمات عندى وإن لم أجرب عليها شيئا ، لأنى مرضت بالتشكك . وقد كان من الجائز جداً ألا تسجل ذاكرتى وألا يعى انتباهى شيئا مما رأيته فى القاهرة لو أن عينى لم تنفتحا على ما اقترفته أم ربيع . لقد أصبحت هذه المرأة مع الأسف أقرب إلى أن تكون فى نظرى معنى من المعانى المجردة ، فلم تعد مخلوقة من لحم ودم ، بل أصبحت هاجسا يسكن فى نفسى وريبة تجرى فى عروقى ، حتى نغصت على فى أيام شبابى أشهى ملذاتى ، وكانت بالنسبة إلى نشواتى اللطمة التى تصك وجه السكران لأجل أن يفيق .

وأصبحت بفضل هذه الأبواب التى فتحتها على شابا هادىء الظاهر مضطرم الباطن كأننى مستنقع غطت خضرة « البشنين » كدرة مائه الآسن » (٩٣) تولدت فى نفس حسنى سموم الشك « علاقة المرأة بالرجل فى نظرى علاقة غامضة يحجبها دخان ، وأصبحت كأننى مريض « بازدواج المنظر أرى الشىء الواحد شيئين اثنين فلم أعد أرى الزوجين رجلا وامرأة

---

(٩١) الرواية : ص ٦٥ .
(٩٢) الرواية : ص ٦٦ .
(٩٣) الرواية : ص ٦٦ .

فحسب ، بل صرت أراهما رجلين وامرأتين . . . كادت زوجة أبي تفسا على الحياة كلها حين خلقت مني شابا يرى الحركات العادية أشياء غير عاديا فتصورت المرأة الشريفة هي من لا تحب أي رجل في الوجود ولو كان زوجها فهل تتصور هذا (٩٤) .

— ٢ —

رحل حسني من منزل عم غانم وأقام في أطراف المدينة في بقعة من بقاع قلعة الكبش . واستقبل عامه الجديد طالبا بالبكالوريا .

ويكشف محمد عبد الحليم عبد الله عن طبيعة حسني المنعزلة (٩٥) حين يصف انطباعاته بعدما استقر بمفرده . « وإذا عدت لأشرف على الكون من نافذتي الغربية بدت القاهرة تحت مستوى بصري منخفضة تلمع أضواء

---

(٩٤) الرواية : ص ٦٧ .

(٩٥) يحتفل محمد عبد الحليم عبد الله احتفالا كبيراً بنموذج الشاب العاطفي المنعزل الذي يحيا على هامش المجتمع . يقول عبد العزيز بطل « بعد الغروب » (وأحسست شيئاً من الراحة في هذا السكون الذي لا تشوبه حركة ... ولست أدري مصدراً لراحتي هذه : لعله من دمعة ذرفتها على بؤسي ويأسي وأنا في فضاء طليق لا يعكره إنسان ، أو لعله راجع إلى خلاني بنفسي وقد عودتني دائماً أن تهدأ من غليانها إذا ما انتابها كرب فقرت بها عن الناس . وجعلت أفكر في هذا الكون الهاجع وما يرفرف فوقه من راحة وسكينة ، ثم ماذا سيكون فيه بعد ساعات حين يسترد النوم سلطانه فتدور رحى الجهاد مع الشمس ويتزاحم الأحياء على المآرب(٦، ٧)

يقول د. ماهر حسن فهمي عن أبطال عبد الحليم عبد الله إنهم أكثر إيجابية ، فهم لا يهربون ، ولكن يكافحون كفاحاً مراً من أجل تهيئة جيل أشد مراساً وأكثر ثقافة وأعمق وعياً وإحساساً بالمسئولية التي هو أهل لها . » ص ٨٨ من الأدب والحياة في المجلمع المصري المعاصر ، . أول يونيو ١٩٦٤ . ويتخذ د. ماهر من مختار بطل قصة « شمس الخريف » نموذجاً دالا على ما يرى .

والواقع أنه باستثناء شمس الخريف (١٩٥٢) فإن أبطال رواياته هامشيون ، سلبيون إنهم قد يحققون نجاحاً علمياً لكنهم يفشلون في إقامة علاقات اجتماعية عميقة مع أفراد المجتمع . فهم مغرقون في مثالية زائفة لا نشعر أنهم يعيشون وسط مجتمع ديناميكي معقد بل كأنهم في جزر نائية .

نوافذها المفتوحة وراء غلالة رقيقة من ضباب النيل وهنا تسرى فى أوصالى تلك النشوة التى تخلفها الوحدة فى الغالب فأتخيل كل ما أشتهى . . . أتخيل أننى أطل من أبراج قصرى على أملاكى الواسعة ، أو أتخيل أننى فى بقعة أويت إليها بفقرى ولجأت إليها ببؤسى حتى لا يعرف مكاننا إنسان .

وأخذت أضواء النوافذ تتوارى من سماء القاهرة شيئا فشيئا وأنا جالس إلى النافذة ملق بزمام فكرى إلى يد لا أعرف ما هى ٥ . يخيل إلى أننى اكتشفت حياتى فى هذه الليلة فقط ، حتى لكأننى تحسست جسمى ولمست الوجود بيدى ، ونشرت خريطة الدنيا أمام بصرى كما يفعل القواد فى الحرب ، ثم رأيت فيها موقع حجرتى منها وموقعى أنا من حجرتى ووضعت تحته إشارة بالقلم الأحمر . كانت هذه أولى ثمرات الوحدة . . . لقد أحسست أننى مخلوق » (٩٦) .

• • •

يبدأ حسنى يفكر فى المرأة ، معنى هذا اكتمال رغبته فى الاتحاد الجنسى والوجدانى ، بقول آخر يمكننا أن نقول أن هذا التفكير فى المرأة سيساعد — إلى حد ما — على اندفاع (الأنا) فى العالم الموضوعى . — الجنس بوصفه ظاهرة بيولوجية واجتماعية له طابع موضوعى — وهذا التفكير فى المرأة لم يطرح من ذهنه الشك الذى يستكن فى لاشعوره وفى شعوره على السواء

= وقد لاحظ المستشرق الأب جوردان مونو هذه الملاحظة كذلك . يقول إن البطل لا يتغير فى رواياته « إنه يتكرر ، ولكن دون أن تتغير سماته . . وهذه السمات الشخصية واضحة بدقة وتحديد : إنه شخص عاطفى . إن الناقد « لاسن » حمل هذا اللفظ — الأدبى معنى علميا فالعاطفى عنده يدل على نفسية فرد سهل الإثارة غير فعال وثانوى وهذه هى صفات بطل عبد الحليم عبد الله . فهو شاب فى مقتبل العمر ، معدنه وسط بل يكاد أن يكون هابطاً ولكنه طيب القلب غير أن تلك الصفة الحميدة لا تترجم بأفعال إيجابية إلى أثر محسوس إذا تطلب منه إنجازها جهداً كبيراً وعليه ، فهو غالبا ما يفضل أن يعيش مع نفسه . وهذه السمة المميزة للثانوى ، إذ تعلن تلك اللفظة عن عدم التكافؤ بين حقيقة عواطفه وبين ضعف الإرادة لتحقيق أمنياته » .

إقرأ : الأب جوردان مونو : محمد عبد الحليم عبد الله روائى الدلتا ، مجلة المجلة ، العدد ١٦١ ، مايو ١٩٧٠ ، ترجمة سمير وهبى ، ص ٤٠ .

(٩٦) الرواية : ص ٧٥ .

« المرأة !!! ثم تململت فى مجلسى وهززت رأسى كأننى أنفى شيئا ثم قلت : أوه . . . خطأ . . . المرأة ؟ ! . . أم ربيع ؟ ! أعوذ بالله . . . ؟ حبيبة عم غانم ؟ ! . . . أم فوزية ؟ . . . ألسن جميعا من النساء ؟ إنهم مجانين : . . » (٩٧) . والمؤلف يغذى عنصر الشك فى بطله فيضع فى طريقه المواقف التى تشكل « المثير » بالنسبة لهم . « كان هذا المنظر بالنسبة لأفكارى عن المرأة أشبه شىء بالحامض الذى يثبت المصورون به ألوان الصورة الشمسية » (٩٨) قال حسنى ذلك بعدما رأى عاشقين يتناجيان فى حديقة الأورمان :

ويدور محمد عبد الحليم عبد الله بنا مع المنحنى النفسى للبطل . فهجومه على المرأة آية على افتقاده لها . « لم تكن أفكار وحدتى عنها مشبعة دائما بالنقمة العظمى التى شحنت نفسى بها فى الأيام الماضية . كانت هذه النقمة تتذبذب بين الارتفاع والانخفاض كما تتذبذب حرارة المحموم ، وكانت تدنو من الانخفاض كلما احتوتنى حجرتى الهادئة ، ثم تكاد أفكارى عن المرأة تستحيل إلى حركات منغمة إذا ما ازداد الهدوء من حولى . . . إذا ما انفردت بنفسى وسكن الليل وسكن الجبل وتتابعت أضواء القاهرة فى الاختفاء تحت بصرى حتى إذا ما أصبح الصباح وخرجت إلى مدرستى وقعت عينى فى كثير من الأحيان على الفتيات يحملن الحقائب وهن فى طريقهن إلى المدارس أو المشاغل ، ثم ترتاح إلى ملامحها ثم يحمل الدم إلى مخى شيئا منعشا منبها معا : كأنه خليط من العطر والنوشادر ، فيملأ رأسى برهة ولكنه لا يلبث أن يزول ، وتظهر لى فجأة ومن بين الزحام زوجة أبى وهى تنظر بعينيها المكسورتين . فتمشى عقارب الحقد على شغاف قلبى وأتمنى أن يكون هناك امرأة ، على القرب منى لأحكمها لا لأحبها . ولأتحكم فيها لا لأدللها ، ولأنتقم من جنسها أم ربيع فى شخص هذه التى تعرض فى طريقى (٩٩) .

(٩٧) الرواية : ص ٧٩ .
(٩٨) الرواية : ص ٨١ .
(٩٩) الرواية : ص ٨٥ .

على أن هذا الستار الكثيف من الشك كان يخفى تحت الرماد جمرات موقدة بنور الحب . «ولقد كمن عنصر الحب فيها على كل حال وإن كان قليلا خفيا كعرق الذهب يضل بين ذرات الصخرة وقد أدركت هذا فيما بعد» (١٠٠) .

كان حسنى يتصور المرأة فى خلواته على هيئة غير واضحة المعالم . ومنذ تبلورت تأملاته وتركزت تخيلاته فانصبت كلها على شخص واحد فى عالم الواقع – « زينب » – تحول لفح النار الذى كان يضرم نارها الشك إلى دفء العاطفة . سنحت الفرصة أمام حسنى لقهر العزلة بالحب . يقول «برديائيف» عن دور الحب فى الانتصار على العزلة « الحب حقا هو أفضل الوسائل لبلوغ هذه النهاية لأنه يجعل « الأنا » فى اتصال مع « **الذات الأخرى** » مع « أنا » أخرى يمكن أن تنعكس فيها انعكاسا صادقا ، وهذا هو الاتصال الروحى بين شخصية أخرى .. والشخصية والحب يرتبطان ارتباطا وثيقا ذلك أن الحب يحيل الأنا إلى شخصية ، والحب وحده هو الذى يستطيع أن يحقق الاندماج الكامل مع كائن آخر ، هـذا الاندماج الذى يعلو على العزلة » (١٠١) فما الذى فعله حسنى ؟! انه بعد أن أحب زينب نكص على عقبيه ، لكن كيف كان ذلك ؟!

إن زينب التى أحبها حسنى تسكن معه فى منزل واحد «ولا أكتمك انى فكرت فى هذه الفتاة ولكن أفكارى عنها كانت صورة مشوهة مخلوطة . . . كنت متعصبا لفكرتى عن المرأة تعصب الوثنى لجلال صنمه فلا أريد أن أتحرر من ربقة الأوهام كأننى بذلك أنتقم من أم ربيع بطريق غير مباشر ... وكنت كذلك أشم من وجه زينب الصبيح ومن عينيها الراضيتين رائحة الشفاعة فيجنح قلبى قليلا إلى العفو ، وتمشى فى جسمى الذى خلقه من طين حركة منتشية خفيفة تريد أن تستفز أوصالى ، ولكنى أسارع إلى رداء التعصب

---

(١٠٠) الرواية : ص ٨٥ – ٨٦ .
(١٠١) برديائيف : العزلة والمجتمع ... ص ١٣١ .

فأرتديه واخضع بعد ذلك لجلال الصنم»(١٠٢) ولم يخرج حسنى عن موقفه الهامشى ، السلبى وتركت المشكلة تتأجج وتأكل نفسها كأنها النار ، وجعلت من شخصى رجلا آخر يتفرج على شخصى ، وكان معظم شعورى واكثر إحساسى مع المتفرج (١٠٣) .

ولم يلبث جمود الأيام أن انتفض ، وسكون الحياة أن تحرك، ثم أخذت أفكار الليل المبهمة الغامضة تتبلور وتدور حول فتاة حقيقية موجودة يفصل بينها وبين حسنى السقف وحده ثم ألفيتنى أقول وأنا جالس وحدى وعقب تفكير طويل : هذا عجيب انى أخشى أن أحب (١٠٤) ويقول ... ويخيل إلى أننى ابتسمت فلقد رأيتها تبتسم . وحاولت بعد هذا أن أبرح مكانى متراجعا عن حافة الشباك لكننى عجزت . كانت عيناها تناديانى . كنت فى موقف حمدت نفسى على انها تشجعت فيه . خيل إلىّ ان مغناطيسها سيستنزلنى إلى حيث تقف ، لولا أننى قاومت ... لكأن الارض منحت جزءا من جاذبيتها لكثير من العيون ...آه ... لا تدعنى استرسل فى هذا الحديث فإن الحوادث ستجبرنى على أن أقول كثيرا . والذى يعينى الآن هو أن الخيوط امتدت من إطار نافذتى إلى إطار شرفتها ، وانى كنت طول هذه الفترة أتبادل أنا وهى نظرات متفاهمة بليغة ، كان أشد ما سرنى منها هو أننى عرفت كيف أنظر إلى فتاة ، وكيف انقل ما فى نفسى اليها بعينى»(١٠٥) .

وإذا كان الحب هو فجر الشخصية ، لأنه يحيلها إلى شخصية تكشف ذاتها فين تحب — وهو بالتأكيد كذلك — فما الذى أوحى به الحب لنا عن شخصية البطل حسنى ؟ إن زينب هى التى بدأت تتصدى له وتبوح بمكنون فؤادها ، غلطة أن تسارع الفتاة فتقول لرجل : إننى أحبك وقد يكون

---

(١٠٢) الرواية : ص ٩٧ .
(١٠٣) الرواية : ص ٩٧ .
(١٠٤) الرواية : ص ١٠٤ .
(١٠٥) الرواية : ص ١٠٩ .

ذلك مؤثراً أجداً بالنسبة إلى بعض القلوب. وقد يقع العكس ! .. لا أدرى كيف التقت شفتانا ، ولو كنت أدرى لترددت ! ! كان اعترافا من غير كلام ، وكانت مكاشفة من غير حديث ، ومع ذلك ظلت أذنى ظمأى إلى أن تسمع من فمها كلمة» (١٠٦) إنه عاشق خائر العزيمة ينتظر منها أن تبدأ بالإفصاح عن مشاعرها ويقول وكأنه ألقى من على كاهله عبئا ثقيلا وأخيراً قلت لها : أحبك ! ! فأجابت وهى تسبل من أهدابها وتنظر فى كفها : أحبك ! ! (١٠٧) ويلخص حسنى هذه الفترة من علاقته العاطفية مع زينب بقوله « واستطيع أن أعتبر هذه الفترة هى المدة الحقيقية التى عاملت زينب فيها رجلا له قلب ، أو رجلا قلبه كقلوب الناس علق فى صدره ليؤدى مهمة القلوب على الأرض . . . كنا سعداء (١٠٨) قالت له مرة : — هل تؤمن بفكرتى فيه ؟ قلت : فى ماذا ؟ قالت : فى الحب؟ ! . . الحب رق وعبودية اختيارية . . . وأشد العبيد طاعة لمولاه هو أجدرهم بأن يسمى حبيبا . وسكتت ، ولكنها لم تكف عن تحريك يدها فبقيت كأنها تكتب ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز فى يمينى . . . لم يستعص على باب ، لا ، ولم يزجرنى حارس . وكانت عيناها تمنحان وتدفعان إلى الإمام . وتسقيانى خمرا استعين بها على المخاوف حتى لا انكص . . . ولكن . . . آه ! ! . لا تدع خيالك يجمح بك ، فقد كنت نصف كريم (١٠٩) فماذا حدث من المحبوب حتى يتخلى عنه . ما السبب الذى دفعه إلى النكوص Regression(١١٠) إن حسنى يعترف بأنها كانت شعلة متأججة من الحب والوفاء . كانت كما

---

(١٠٦) الرواية : ص ١٣٥ .

(١٠٧) الرواية : ص ١٣٦ .

(١٠٨) الرواية : ص ١٤٠ .

(١٠٩) الرواية : ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(١١٠) Regression النكوص هو العودة إلى حالة سابقة من حالات التكيف التى تتعلق بمرحلة سابقة من مراحل النشوء . سيجمند فرويد ، الذات والغرائز ، ترجمة د. محمد عثمان نجاتى ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٥ ، ص ٤٧ (الهامش) .

تقول تنقضها الفرصة التى تمكنها من أن تبرهن على فنائها فى واستعدادها لتقبل الموت إذا كان الموت من أسباب حياتى وكانت تتمنى أن تسنح لها هذه الفرصة : وكنت آخذ هذه القضايا مأخذاً سهلا بلا مناقشة ولا مراء ، لأننى كنت جائع القلب فلم أتساءل من أين هذا الطعام ولأن ذكرياتى عن أم ربيع وقريناتها كانت تغط فى سبات عميق»(١١١) .

إن حسنى يعلم أن زينب كانت تريد أن تحقق له السعادة بأى وضع من الأوضاع ولكنها تغيرت فى ناظره . ولم يعد ليتبوع ذلك البريق الآخاذ الذى كانت النفس تتحرق لهفة إلى معينه ... مسكينة !! لقد كانت مخدوعة ... إننى أعرف نفسى وقد وصفتها لك من قبل : انى هادىء الظاهر مضطرم الباطن كأننى مستنقع تغطى خضرة البشنين كدرة مائه . وأفاقت عقارب الوساوس من خدرها فدبت على أديم قلبى وثارت الذكريات وتحرك الماضى من سباته ، وجعلت أذكر أم ربيع كل ليلة قبل منامى واذكر قرينات أم ربيع كلما سمعت صوت زينب يتصاعد من الشرفة أو من مسقط السلم .

لم أعد أشد الخيط كثيراً إلى عريشة اللباب ، ولم اعد أقلق سكون الليل بدق أرض الغرفة ... أصبحت أرى النجوى والحديث والميعاد واللقاء ، مضيعة لوقت الطالب ومشهداً يسوده ويشوبه التكلف من ناحيتى وعدم الصراحة ... كنت متقززا ، أو كأننى فاتر ، وإن كنت نصف كريم. أريد غير الذى كان وإن دلت على غيره الظواهر . كان داخلى مشحونا بصور الخيانة فما كان ينبغى أن تدلانى . كان من الخير لها ولى أن تدعنى فى النار والاعصار . ليتها كانت معقدة ملتوية ولو معى أنا وحدى لو أنها حملتنى على سفود وعرضتنى طويلا للجمر ، لكان من المحتمل جدا أن يتغير الموقف ... ليس كل رجل بقدر معنى التضحية وليس كل رجل يفهم معنى البذل ولو انها لم تبلغ فى بذلها الذروة !! ماذا كان يريد أن ينتظر منها . لم يحفل بكبرياء المحبوب بل مضى

---

(١١١) الرواية : ص ١٤١ .

فى تذلله ».. ولاحظت مع الأيام أنها تبذل فى كل لقاء جهدا كبيرا لئلا يسترخى حبل الحديث بينى وبينها ، كانت كأنها ترعى مريضاً عزيزا لأن الذعر كان يلون جمالها كلما رأت على وجهى مسحة من الهموم ... لم أعد أقول : إنها مسكينة ولامخدوعة ، بل كنت فى كثير من الأحيان أتصور مشرطا من الشفتين الرقيقتين وهما تهويان نحو فمى ، مشرطا حادا سينال به صاحبه ما لاحق له فيه !! وتطور الأمر إلى أبعد من هذا وجدتنى فى كثير من الأحيان أقف منها موقف المتجنى ثم موقف المهاجم وتعللت أول الأمر بعلة أنى أريد اختبار وفائها وصبرها على أذاى ، ثم صار هذا عادة حيالها. أصبحت بالنسبة إليها نارا دخانها أكثر من دفئها ، ولكنها لم تتململ ، وكان ينبغى بعد ذلك أن أكون كريماً فاسترد شيئا من حسن المعاشرة ولكن شيطان الشك كان بارعا جدا ، فسول لى أن احتمالها الأذى داخل فى نطاق المؤامرة ، وأنه أن جاز علىّ هذا كنت مخدوعا مثل أبى !! إذن فما معنى الحب ؟!»(١١٢).

ورغم هذه القسوة على زينب فإنها تقول له توقع كل شئ يا حسنى إلا شيئا واحدا ... إلا إن أقول لك : إنى كنت مخدوعة فيك .. لم يحدث ذلك قط وأقسم أنى كنت مختارة فى كل ما فعلت .. كنت أعنى كل ما أقول ، وكنت أقصد كل ما أعمل. وقد وقع بينى وبينك أشياء لعلك تنظر إليها الآن على أنها أخطاء ... تأخذنى بها وتصغرنى فى عينيك .. آه .. ولكننى مصرة عليها ومتعصبة لها ، لأننى لم أبذلها لك ارتجالا كما تغتنم لذة مهرة عرضت لك فى الطريق . كلا . إننى أربأ بأخطائى أن تكون من هذا النوع على أنه لم يحدث بينى وبينك ما يؤاخذنا عليه الناس مؤاخذة عنيفة .. ولست أقول هذا قاصدة أن أخفف عن قلبى عناء ولاضبا وإنما أقصدك أنت به.. فإنى لازلت أخشى أن أعتب لك ندما فى بعض خلواتك (ثم خفت صوتها ثم كفت عن الحديث وقالت بعد برهة) حسنى .. أتفهمنى ؟ اقسم لك أنى صادقة فى

---

(١١٢) الرواية : ص ١٤٧ - ١٤٨ .

كل ما أقول !! كانت الشمس فى هذه الساعة مدرجة فى أكفان من الشفق على الأفق الغربى وكنت ناظرا إلى موقع قدمى على الطريق وهى تتحدث فلم أرفع عينى إليها لكننى كنت متصورا ملامحها من نبرات صوتها وخفقات أنفاسها . كنا نسير فى اتجاهات مختلفة نراعى فيها أن تكون الطرق التى نختارها هادئة نوعا . ولم يكن فى قلبى لها حنان كثير بل ربما كان مائلا فى ذلك اليوم شيئا ما إلى جانب القسوة . ولكنها ماوصلت من حديثها إلى هذا الحد حتى رفعت إليها طرفى فرأيتها تمثالا ينطق بالذلة وخيبة الأمل . وبالحب كذلك مع الأسف الشديد !! كانت ضراعة وهوى واسترحاما .. كانت — كما خيل إلىّ — تتمنى أن تجثو تحت قدمى اولا أننى فى طريق عام»(١١٣) ثم يقول وكأنه يهز كتفيه متجردا من المسؤولية وينفض يده من المشكلة ببساطة .. اعترف لك أننى كنت قاسيا ولكنى ماذا أعمل ؟! لقد كانت الظروف كلها متألبة عليها !! أصبحت أحبها فى وضع واحد وفى موقف واحد ... أحبها امرأة منكسرة ذليلة تنظر من حضيض جثوها إلى رجولتى فى العلياء ... لاتؤاخذنى فقد انطلقت الشياطين من داخلى بعد أن انفرجت عنها أغطية القماقم شيئا ما ، شياطين ربتها أم وبيع ... وليس الذنب ذنبى فهكذا نشأت ولعل زينب لا ذنب لها كذلك ولكن حظها هو الذى يسر لها أن تعرض فى طريق رجل مثلى(١١٤) وهكذا دائما ما يلقى حسنى تبعة تصرفاته على الأقدار والظروف ولايدرك أن العيب كامن فيه هو . إن الأبطال ذوو الموقف الهامشى يفتقرون إلى لحظة صدق مع النفس يواجهون بها الذات . أصبحت أتعلل بمختلف العلل وبكثرة العلل ، وفى الحق اننى كنت متضايقا من نفسى ... كانت الومضة الإلهية التى لمعت فى قلبى لأقل من عامين قد بدأت تخبو ، حتى وجدتنى أحس شيئا من انقباض القديم ووحشتى الأولى فأصبحت شبه يائس(١١٥) .

---

(١١٣) الرواية : ص ١٥٣ .

(١١٤) الرواية : ص ١٥٥ .

(١١٥) الرواية : ص ١٥٦ .

! ويبدو أن حسنى مريض بالسادية فهو يتلذذ بتعذيب المحبوب . إنه يحبها منكسرة ذليلة . أما زينب فهى الأخرى مريضة بالمازوكية(١١٦) . إنها تكاد تجثو تحت قدميه متضرعة إليه فى ذلة واسترحام .. ولقد نجح المؤلف فى أن يخلق إيقاعا خارجيا يتفق مع الإيقاع النفسى الداخلى للبطل . ففى الوقت الذى بدأ يشعر بالعزوف الباطنى عن حب زينب كانت الشمس ملمرجة فى اجفان من الشفق على الأفق الغربى . هنا لمسة الروائى الفنان . وكأن الطبيعة تشارك البطل موقفه من حبه الآخر فى الأفول والغروب مثل قرص الشمس الغارب .

وتبلغ هذه النفس اللولبية ثمالة كأسها عندما يقول : إننى لاأزال متعطشا حتى هذه الساعة إلى دليل جديد تثبت لى به أنها تحبنى ، فلتكن هذه المباغتة وسيلة إلى ما أبتغيه ، ويسافر دون أن يودعها خيل إلىّ أنها أحست حركتى وأدركت طويتى وأنها لحقت بى فكأنها واقفة على الرصيف ، ممسكة بحافة النافذة ناظرة فى مجلس نظرات تفيض عتابا وحيرة ولهفة ثم تسألنى وشفتاها الذاويتان ترتجفان : لم فعلت هذا ؟! .. ولم هذه القسوة فاختلج قلبى اختلاجة استدللت بها على أنه حى ، ثم تشاغلت بأشياء أخرى ثم شغلت بأم ربيع وبأبى وبكل ماحولى ، عما كنت منغمسا فيه(١١٧) فهو يتلذذ بأن يراها فى موقف المهيضة الجناح ، الذليلة حتى فى نطاق تصوراته وخيالاته :

ومن عجب أنها ظلت تبعث برسائلها إليه لقد كنت تسقى من نافذتك مخلوقة أخرى غير هذه الشجرة ، أتذكرها ؟! أيها القاسى .. لماذا أنت

---

(١١٦) السادية Sadism نوع من الانحراف الجنسى يتميز بالحصول على اللذة الجنسية من إيلام الناس وتعذيبهم . أما المازوكية Masochism فهى التلذذ من إيلام الذات على العكس من السادية . ففهوم السادية عبارة عن اتحاد الغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجهة نحو العالم الخارجى . وتنشأ المازوكية عن اتحاد الغرائز الجنسية مع غرائز الهدم الموجهة ضد الذات .

إقرأ : سيجموند فرويد : الذات والغرائز ... ص ١٢ ، ٧٠ من تعليق المترجم .

(١١٧) الرواية : ص ١٦١ .

محبوب ؟ لست أطلب منك صفحا أن عددتنى مخطئة لأننى ، متعصبة لأخطائى ، فهل تفهم ؟ لم يخدع أحدنا صاحبه عن شئ ، أم هل كنت لا تعنى الذى فعلته ؟ (١١٨) وبقى البطل فاتراً فى كل ماكتبه — وهو قليل — لها . ولم يعلق على جزعها بشئ .

وعندما يعود إلى القاهرة تقول له الخادمة : ماتت سيدتى ، بعد أن ابتلعت أقراص منومة .

وتمر الأيام ويفرغ حسنى من دراسته ويصبح مهندسا للرى ، ويعين فى احد بلاد الوجه البحرى ويعجب بـ « مهجة » إبنة احد المقاولين لكنه متردد ويكشف عن مخاوفه لصديقه فؤاد فيقول له صاحبه : لقد جاهدت زينب طويلا حتى فتحت الحصن ... فتحت قلبك ثم خرت صريعة فى الميدان .. لقد ماتت شهيدة . وهاهى ذى فتاة اخرى تتمتع بميراثها العظيم ... أنت مدين لها بما ستلقاه من سعادة مقبلة فى حياة الزوجية لايشوبها وساوس ، ولكن احذر أن تتردد وإياك أن تقع فى اخطائى (١١٩).

* * *

إن رواية شجرة الليلاب تحكى قصة حب فاشل لشاب يكره النساء ، ونحن بمعايشتنا البطل وقائع حياته ومواكبتنا له فى مواقفه ومحاولتنا أن نستشف البناء النفسى لشخصيته أدركنا أن جذور أزمته تمتد إلى طفولتـــه الباكرة .

ولقد توفر المؤلف على تعميق الحياة الوجدانية للبطل . فبطلنا يمضى فى تحليل نفسه طويلا وساعده فى ذلك أنه يسرد حياته بصيغة المتكلم المفرد وبأسلوب لا يخلو من تأنق ، وقد طبع ذلك الرواية بطابع الذكريات فضلا

---

(١١٨) الرواية : ص ١٦٢ .

(١١٩) الرواية : ص ١٩٣ .

عن لمسة الاعترافات . يقول الأب جوردان مونو إن محمد عبد الحليم روائى داخلى أو باطنى فهو يهتم كثيراً بنفسية شخصياته ، وبناء عليه ، نجد أن لولب رواياته نفسى يكاد يكون مستقلا عن الحوادث الخارجية(١٢٠) . وبالفعل فنحن لا نعرف اسم القرية التى نشأ فيها حسنى أو اسم البلد التى عين فيها بعد تخرجه فهو يحتفل بحياة البطل الداخلية إذ هى عنده تأتى فى المحل الأول من اهتمامه . ومن ثم فتطور شخصية البطل هنا ينبع من تطور الحياة الوجدانية الداخلية وليس نتيجة تفاعله مع الخارج . ويترتب على ذلك أننا نلاحظ انعدام تفاعل البطل مع البيئة أو فعله وتأثيره فيها وهنا يكمن الموقف الهامشى له . اما الالتفاتات إلى الواقع الخارجى فهو منعدم تماما فى الرواية . يقول لنا المؤلف إن حسنى بطل الرواية رحل من منزل عم غانم وأقام فى قلعة الكبش وكفى . أما تأثير هذه المنطقة الشعبية على وجدان البطل وأسلوب تعبيره عن عواطفه فلا نكاد نلمح له أثراً(١٢١) . وهذا فى الواقع سمة البطل عند عبد الحليم عبد الله أن أبطاله كأنهم يعيشون فى صحراء جراء أعواد نابتة فى الخلاء . إنهم لا يعمقون من فهمنا للواقع أو يزيدون من إحساسنا به . وينبع ذلك من أن الرؤية الفنية للمؤلف تأتى من الداخل ، من ذاته هو . وفى هذه الحالة فهو حفى بذات البطل ومشاعره يحاول أن يكشف الغطاء عن سراديب ذاته . إنه يخاطب مشاعرنا ، ولو استمد تجربته من الواقع لخاطب عقولنا ومشاعرنا معا .

إننا نسأل أنفسنا بعد أن نفرغ من قراءة الرواية — ما التجربة الإنسانية التى أضافها العمل الفنى بالنسبة إلى موقفنا السابق من تجربتنا مع وقائع الحياة ؟ ومن المتوقع — بداهة — أن هذه التجربة إما أن تغير من موقفنا وإما أن تعدل منه وإما أن تضيف إليه جديدا فتزيد من ثرائه وعمقه . ولكننا هنا لا نشعر بعمق التجربة الإنسانية بل نشعر بضحالة تجربة البطل العاطفية .

وليس أسهل من تلمس الوسيلة للقضاء على زينب طالما أن فى التخلص

---

(١٢٠) مجلة « المجلة » المرجع السابق .

(١٢١) قدم د. عبد العظيم أنيس ملاحظات سديدة على سمات أبطال عبد الحليم عبد الله ، إقرأ فى الثقافة المصرية ... ص ٨٧ .

منها شفاء البطل من أدران الشك التى علقت بقلبه ونفسه . وهنا أماتها المؤلف بأقراص منومة وليس من شك فى أن هذه النهاية تعد نهاية ميلودرامية إن المؤلف شعر أن بطله الذى خلقه من روحه ونفث فيه الحياة بدا مسخا مشوها مريضا لا تخرج مواقفه عن الإيقاع الرئيسى : كراهية المرأة، الشر هو الأساس، لا خير فى العالم طالما أنه لا خير فى النساء ، هكذا يصور خياله المريض أليس ذلك هو عين الموقف المتصلب Rigidity الذى يفتقر إلى المرونة Elasticity أليس ذلك دليلا على عدم نضج شخصية البطل ؟ لاحيلة أمام المؤلف — بعد أن خرج الموقف من يده — كى « يروض » بطله على العيش فى المجتمع إلا أن يقدم زينب قربانا على مذبح الحب والوفاء فتموت شهيدة بعد أن فتحت الحصن . ولذلك فهو يقول على لسان صديقه فؤاد أنت مدين لها بما ستلقاه من سعادة مقبلة فى حياة زوجية لا يشوبها وسواس ، ولكن إحذر أن تتردد وإياك أن تقع فى أخطائى إن هذا التحذير من فؤاد هو دعوة للسلوك المتكامل اجتماعيا Incgrative دعوة المرونة أن يكون البطل متفاعلا مع البيئة .

أما بقية شخصيات الرواية فهى شخصيات ثابتة غير متطورة : شخصية الأب أو الأخت هنية أو أم ربيع أو عم غانم وزوجته أو فوزية .

. . .

ليس أدل على الموقف الهامشى للبطل من مجتمعه وإحساسه بالعقم الاجتماعى وبالفقر الروحى وبعجزه عن المشاركة الإنسانية العامة من قوله لكأننى أعيش فى غابة من شجر السنط لازهر فيها ولا ثمر .